بسم الله الرحمن الرحيم

أقمار بغدادية

رواية

obeikandl.com

أقمار بغدادية / رواية : نور محمد مؤيد الجندلي / تقديم : أحمد خيري العمري .- دمشق: دار الفكر ٢٠١٠ .-١٣٢ص ؛ ٢٠سم.
ISBN: 978-9933-10-156-5
١-٨١٣.٠١ ج ن د أ ٢- العنوان ٣- الجندلي
مكتبة الأسد

obeikandl.com

نور محمد مؤيد الجندلي

أقمار بغدادية

رواية

تقديم

الدكتور أحمد خيري العمري

obeikandl.com

شباب لعصر المعرفة
2010=1431

دار الفكر – دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

أقمار بغدادية

رواية

نور محمد مؤيد الجندلي

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٤٢,٠٣٦
الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-156-5
التصنيف الموضوعي: ٨١٣ (القصة والرواية والحكاية)
١٣٢ ص، ١٢ × ٢٠ سم
الطبعة الأولى : ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م
© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

obeikandl.com

الإهداء

إلى أجمل قلبين في حياتي..

أمي وأبي..

مع الحب..

obeikandl.com

obeikandl.com

تقديم

عندما أخبرتني الأخت الفاضلة نور جندلي، في رسالة إلكترونية، عن رغبتها في كتابة رواية عن العراق، وسألتني بعض الأسئلة عن أسماء الأحياء وأسئلة عامة أخرى، لا أُخفي أنني أبديت استغرابي من الأمر، بل حتى تشككي من قدرتها على ذلك.. ليس تقليلاً من موهبتها التي لا تحتاج إلى دليل ولكن لأن ذلك أمر قد يكون خارج قدرة أي كاتب مهما علا شأنه.. فكيف يكتب عن المدينة من لم يزرها؟ ومن لا يعرف حتى أسماء أحيائها؟.. عبّرت يومها عن استعدادي للمساعدة.. ولم أتلق طلباً من الأخت نور بذلك.. وتصورت أن الأمر انتهى عند المحاولة، كما يحدث مع المبدعين في أحيان كثيرة..

بعد بضعة أشهر، وكنت قد قاربت نسيان الأمر فاجأني بريدي الإلكتروني برسالة من الأخت نور تضم مرفقاً هو الرواية الصغيرة الكبيرة.

لن أدّعي هنا الموضوعية والحياد في النقد. بل سأعلنها صريحة وواضحة: أنا منحاز إلى هذه الرواية..

منحاز إليها دون شرط أو قيد.. دون أخذ المعايير الفنية بالنظر أو أي شيء من هذا القبيل، ليس لخروج الرواية عن هذه المعايير؛ بل لأن تعاطفي مع أحداثها وانحيازي إلى أبطالها أبطل تماماً كل حواسي النقدية، تماماً كما لن يفكر المصاب الجريح بتقييم شهادة الطبيب المسعف قبل أن يسمح له بإسعافه!..

هذه الرواية اقتربت من جروحي البغدادية بشكل كبير، ولذا فإن الانحياز إليها هو انحياز إلى جروحي.. هل ثمة خيار آخر أمامي؟ هل يمكنني غير الانحياز لأبطال الرواية؟ بل أن أجد نفسي فيهم.. فيهم جميعاً بلا استثناء ولا تخصيص..؟

منذ الصفحات الأولى، صفحات قرار الخروج الصعب، شدتني الرواية من تلابيبي، ذكرتني بقرار مماثل، في لحظة حرجة استغرقت مني شخصياً أشهراً طويلة من الجدل مع ذاتي ومع من حولي.. استطاعت الرواية هنا أن تجسد ذلك القرار الصعب الذي لا أشك أن كل من خرج يوماً من بيته، قد مرَّ به بطريقة أو بأخرى..

لا أريد أن "أحرق" الرواية على قرائها.. لكنني أحب هنا أن أذكّر، أن سورية، كل سورية، التي كانت الدولة الوحيدة التي فتحت حدودها للعراقيين في ذروة أزمتهم، هي أيضاً التي تقدم لنا اليوم هذه الرواية التي

obeikandl.com

توثق، بطريقة أدبية راقية، جانباً من مأساة العراقيين في الوقت الذي أشاح عنهم الجميع تقريباً..

فشكراً سورية..كل سورية.. بالنيابة عن أولئك الملايين الذين التجؤوا إليك وحمّلوك أعباءً فوق أعبائك..

وشكراً نور.. بالنيابة عن كل أولئك الذين تركوا بيوتهم ذات يوم، في لحظة مدببة حرجة، لم يكن فيها أمامهم خيار آخر.. شكراً..كل الشكر..

د.أحمد خيري العمري

obeikandl.com

obeikandl.com

بادئة

إلى أقمار بغداد..

كل الذين رحلوا عنها وهم يذودون عن حماها..

وكل من صمدوا حتى هذه اللحظة بشجاعة نادرة في وجه إعصار النّار..

ومن لملموا حقائبهم مسافرين عنها، ليعودوا محملين بترياق يشفي جراحها..

وإلى الشّرفاء الذين تداعوا بسهرٍ قلق، وحمى ثقيلة، منذ لحظة سقوطها، وحتى اليوم منتظرين أن تنهض..

سنبقى نتألم معاً جسداً واحداً، حتى نحيا، ويسقط الوجع..!

نور مؤيد الجندلي

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

اختفت الشمس خلف الغيم الأرجواني، وتلاشت عن السماء ببطء، مودعة كل العيون التي تحبها، راحلة عن عالم سيظل يشتاق إليها، إلى عالم آخر فيه عيون أخرى تترقبُ وجودها، وقلوبٌ متلهفة لمصافحتها.

رحلت الشمس، وعمّت السكينة على المدينة الحسناء، وأضاءت دمشق قناديلها، لترسل رسالة أخرى لكل من يفتقد الضوء، بأنني أنا ملكة الشمس، كنت على مرّ الزمان منارة يُقتبس من نورها، فتُملأ الآفاق وهجاً وجمالاً..

غادرت الشمس لتودع سكينة في قلبي، سكينة لم أشعر بها منذ زمن طويل، أطول من أن أحسب عدد الأيام والسنين فيه، فكل سنة بألف، ولست أدري كم عامٍ كبرتُ منذ بداية الحرب وحتى اللحظة!

كم عاصفة اجتاحت قلبي فأسقطت فيه سقوف الراحة الحصينة، وأعمدة الحريّة المكينة!

وكم إعصارٍ اقتلع أشجار السعادة في داخلي، وقد

سمقت يوماً نحو السماء، ومدت جذورها عميقة في شراييني، حتى خلتها معمّرة قروناً..

كم نوبة ألم اجتاحتني قبل أن تُجتاح بغداد، وأنا الآمل دائماً في صمودها، الناظر في كل حين إلى المستقبل على أنه سيأتي مشرقاً رغداً يحمل كثيراً من النجاحات على كل الأصعدة..

أعوام مرّت وتلاشى كل شيء، محقته عاصفة هوجاء، لتبقي أطلالي هنا رميماً.. وكأن شبابي تبعثر على قارعة بغداد، وكأني الآن شيخ في الثمانين..

منذ أيام قليلة فقط.. هناك.. في العالم الآخر الذي ودعته..

في حي الجادرية البغدادي الأصيل، وقفت أمام النافذة أرقبُ عودة والدي الذي خرج بحثاً عن طريقة نتجاوز بها هذا الحصار المريب الذي طال لينال منا جميعاً، كان القمر بدراً يمتد بنوره ليكشف الأفق، والسّماء على غير عادتها هادئة صافية متلألئة النجوم..

كان أخي صهيب في حالة مزرية من التعب، لم نفهم علته، ولم تسمح لنا الأوضاع في خارج المنزلِ بالبحثِ عن طبيبٍ، أو حتى إحضارِ دواءٍ ما يسكنُ آلاماً باغتته، ولم نفهم لها سراً.. كان يئن ويبكي بحرقة، فيما عانت أمي من حمى القلق عليه، وعلى الغائب الذي تأخر فلم يعد..

جلست تلازمه لحظة بلحظة، تتقمص تارة دور الممرضة، أو تنتقي دور الحكواتي الذي يجيد إضحاك الآخرين، وأظنها قد نجحت في اختلاس ابتسامة صغيرة منه، لما قلّدت أصوات حيوانات الغابة كلها، وقلبها مشغول بحيوانات أخرى أشد ضراوة، تجول في شوارع آمنة، من مكان لآخر عبر علب صفيح بعجلات، وقد حولتها إلى غابة خاصة، الحياة فيها لمن يمتلك السلاح.. مستبدلة بأنيابها شيئاً يدعى الرصاص، لا يسلم منه إلا طويلُ العمر.. وهم قلّة!

رشاها بابتسامته الحلوة ثم غفا ملء جفنيه..

تحاملت أمي على نفسها حتى خرجت من الغرفة، لتنهار باكية، فلم تحتمل ضبط أعصابها طويلاً، في جوّ الرعب الذي نحياه معاً كل يوم، ونمنّي أنفسنا عبثاً بأننا سنعتاد عليه، ولكننا لا نزداد منه إلا نفوراً..

جلست قربها ساهراً حتى بزغ الفجر، نسلو عن التفكير في الأسوأ، فنقرأ على صهيب أدعية الشفاء، ونبتهل إلى الله كي يعود أبي سالماً قبل أن يقتلنا الخوف عليه..

ساعة مضت، لنسمع خشخشة مفتاحه في القفل، ولنركض معاً في وقت واحد لاستقباله..

أبي الذي غاب عنا منذ يومين يسعى من أجل

تأمين السفر في أسرع وقت ممكن، بعد أن تلقى ورقة صفراء وضعت على نافذة سيارته تحمل تهديداً بأن يغادر المنطقة قبل أن يرى أفراد عائلته جثثاً هامدة، كما حصل مع محمد المؤذن وعائلته في الحي المجاور منذ وقت قريب..

جن جنونه يومها، وغادرنا وهو عازم ألَّا يعود إلا حاملاً الأمل بين يديه، فغاب ولم يعد إلا في ذلك الفجر الرّهيب ليجدنا أشباه أحياء، قد نال منا الخوف والفزع ما ناله..

عاد يحمل أوراق السّفر، مستبشراً.. كمحكوم عليه بالإعدام، قد صدر في حقه قرار عفو فاستعاد حياته!

عاد سعيداً يحتضننا واحداً تلو الآخر، يضمنا بحرارة، حتى نكاد نسمع دقات قلبه، ونستشعر ارتعاشة فرحه..

عناقه لم يدم طويلاً، ولم ينصت حتى لشكوانا، وحكايا معاناة أخي.. حتى انتفض يجهز الحقائب، ويشير إلى أمي بأن تسرع فقد جاء الفرج..

لن أنسى نظرتها إليه في ذلك الوقت، نظرة تجسدت فيها تساؤلات الكون الحائرة، وأحزانه أيضاً..

فهم الرّسالة وأجاب مطمئناً..:

- لا تقلقي يا ليلى.. سنعود إلى هنا يوماً..

نطقت أخيراً بصوت حشرجة متألمة..:

- ولمن نترك بيتنا الذي احتوانا أعواماً طوالاً؟ لمن تورثُ مكتبك الذي بنيته بنجاحك وجهدك؟ لجند الاحتلال؟ أم لثلة الرعاع الذين يسطون بين حين وآخر على الممتلكات المهجورة فينهبوها؟ كيف سأرحل هكذا، وما ودّعت جاراتي، وما زرت أقاربي ولا أعلمتهم بقرار رحيلنا؟..

- سنخبرهم حالما نصل.. لكن علينا أن ننجو بجلدنا في أسرع وقت، ألا ترعبكِ أصوات الرّصاص التي تخترق السكون بين لحظة ولحظة؟ ألا تخافين أن تخترق رصاصة ما قلبي، أو قلب واحد من صغارك؟

دوى الصّمت أخيراً في المكان.. اخترقته بين لحظة وأخرى أصوات القذائف، وصوت نشيج أمي، الذي كان هو الآخر مثل قذيفة اخترقت قلوبنا جميعاً..

في غضون ساعتين، كانت الحقائب معدّة، محشوّة بملابس، وأوراق لازمة، وكتب قليلة، وبعض الصور والمعدّات..

وكانت عقولنا محشوة أيضاً إلى حد الانفجار بالذكريات ومخاوف المستقبل وكثير من التساؤلات.

ناولتُ صهيب دمية الدب البني التي طالما أحبها، ليحتضنها طوال الطريق، فلا يغترب عن سريره

المريح، وأشرت إلى فؤاد أن يسرع في مساعدة والدي في حمل الحقائب، فيما سمحت لنفسي بأن ألقي نظرة وداع على غرفتي..

تركت سريري مبعثراً كيلا يفتقدني، فالسرير المرتب في نظري علامة هجر، ومررت على مكتبتي الصغيرة الرائعة، التي بنيتها كتاباً تلو آخر، ووضعت كتاب الله فوقها، فقد فكرت أنه سيكون أول ما سأقرأ حال عودتي..

فتحت خزانتي للمرة الأخيرة، حدّقت طويلاً في تفاصيلها، وتفحصت أشيائي الخاصّة، شهادات تفوقي، وكأس البطولة في فريق كرة القدم للمدارس، وصوراً احتفظت بها لأذكر أصدقائي، تركتها كلها لأعود، وأجدها سالمة لم تمس بسوء.. تمنيت معانقتها جميعاً، وخُيّل إلي أنني أسمع أصواتها تودّعني، وتنتحب.. هي الأخرى لفراقي..

وعدتها كمن يقترف جريمة الكذب بأني عائد لها يوماً..

أجابتني أصوات القذائف من الخارج، ساخرة بوعودي..

" لا تلقِ وعودك جزافاً، فما أدراك بأنك قد تعود؟"..

قذيفة قريبة انفجرت تلك اللحظة، وكأنها تخبرني أن لحظة الفراق قد حانت، ولا يوجد ثمة وقت للوداع، أو الحب أو الذكريات..

اهتزت جدران المنزل، فسقطت على إثرها صورة والدي وجدي المعلقة في الصالة، وتحطم إطارها، وتناثر منها الزجاج..

طيلة الحرب ظلت تلك الصورة في مكانها، اهتزت قليلاً أيام اشتداد القصف، تمايلت أحياناً، لكنها لم تسقط قط..

هاهي تتخلى عن ثباتها وتتهاوى، فكأنها تكتب رسالتها..

"أنتم رحلتم.. فمن يتبقى لي؟!"..

صرخ بنا والدي..: أسرعوا.. أسرعوا.. دع الصورة يا طارق، وانطلق إلى السيارة، لا وقت لكل ذلك..

لكنني لم أجبه، بل اقتلعت بقايا الزجاج عنها، وقبلت جبين جدي الذي كان مبتسماً هادئاً.. حملت الصورة ووضعتها داخل الخزانة، وأقفلتها بإحكام.. ثم وقفت مع عائلتي في صمت أرقب فك حظر التجوال، وبدء إشارة الرّحيل..

طرق السائق باب المنزل طرقات خفيفة، وأشار إلينا والدي بالانطلاق..

بسرعة وضعنا الحقائب والصناديق في السيارة، وجلسنا في مقاعدنا، بعد أن تأكدنا أن صهيب يأخذ وضعية جلوس مريحة لن تضايقه طيلة الرحلة، وهمَّ السائق بالانطلاق لولا أن أمي صرخت بفزع:

- أين فؤاد؟ لقد كان منذ قليل هنا..

وتملكنا الرعب جميعاً.. دارت أعيننا في المكان دورات سريعة، لكن المكان بدا خالياً تماماً..

كاد أبي يجن، وأسقط في أيدينا جميعاً، نزلنا بتوجس نفتش عنه، وندفع الهواجس السيئة كلها، كيلا تقتلنا خوفاً عليه..

انفصلت عن والدي أبحث عنه خلف المنزل، لمحت شبحاً يشبهه، فاقتربت.. وعرفت أنه هو من قميصه الأزرق المخطط بلون داكن.. كان يقف مسمراً دون حراك قرب بيت صديقه العزيز..

صرخت ليسمعني والدي، فيعلم أنني قد وجدته، وركضت نحوه، ناديته لكنه لم يجب..

كانت عيناه مسمرتين في الأرض، قد فتحهما على اتساعهما دون أن يرف جفنه..

أسرعت أناديه، لكن ضربات قلبي ازدادت إلى حد شعرت فيه بأنه سينفجر..

لقد كان يحدق في جثّة هامدة على الأرض.. جثّة قد مُثّل بها وألقيت كما تُلقى الجِيَف..

شوهوا وجهه بأدوات حادة فانتفخ، وتلاشت ملامحه، وبدت تحت عينيه بعض الكدمات الزرقاء القاتمة، مما ينبئ بأنه قد تعرض قبل موته لضرب وحشي أرداه قتيلاً..

نطق فؤاد أخيراً بحروف مقطعة.. قالها بمرارة شديدة، وكثير من ألم..:

- عمر.. إنه.. إنه.. صديقي عمر..! أتيت لأودعه..

وجثا على الأرض فلم تعد قدماه تحملانه..

- أتقصد.. أن هذا القتيل هو عمر.. صديقك؟

أومأ موافقاً وعاد يبكي بمرارة..

أسرع والدي إلينا وقد شغله تأخرنا، ليرى المشهد أمامه، فأغمض عيني فؤاد بيديه، وصرخ بي كي أساعده على النهوض والسير..

وفي لحظات تجمع سكان الحي حول الضحيّة، ودوت صرخات الأهل يبكون فقيدهم.. ولم يكن لدينا متسع للعزاء.. فغادرنا الحي بصعوبة، وقد حمّلتنا بغداد من ذكراها أكثر المشاهد إيلاماً وحزناً..

obeikandl.com

لا أدري كيف عبرنا الحي، وتوجهنا إلى الطريق الرئيسية..

كنا كمن ارتكب جرماً وغادر هارباً من فعلته، خائفاً أن يُكتشف أمره..

كل من في السيارة ظلوا صامتين، وجوههم صفراء واجمة، عيونهم محدّقة في الفراغ، قد احتبست سيول الدمع في محاجرهم، وأبت أن تجري خوفاً على مشاعر فؤاد..

المسكين الذي أصيب بصدمة أخرى جديدة، فلم يعد يتجاوب مع أحد، ولم يعد ينبس بحرف، وهو المشاغب الثرثار دائماً..

صوت صهيب هو الذي كان يصدر بين حين وآخر، بكلمات قليلة، يطلب فيها الماء، ويسلو عنا أحياناً بمراقبة الطريق الشاحب، وكأنه في رحلة سعيدة.. قد غادرته آثار الحمى وما تتركه من وهن، فهو الآن في قمة سعادته؛ لأن الخروج من البيت أمنية قد لا يستطيع أن يخبرنا بها، لكن وجهه المستبشر كثيراً ما أعلمنا بذلك.. قد خفف عنا كثيراً من الحزن، فقلما نجده سعيداً هكذا..

سارت السيارة بحذر شديد، تخترق الحواجز، والشوارع الخطرة، واستطعنا - بعد كثير من القلق والتوجس والانتظار، وبعد تجرع ألوان من البؤس عبر الأسئلة المستفزة، والشكوك والإهانات - الخروجَ أخيراً من حدود بغداد..

قطعنا الطريق الكئيب، وأرواحنا في أكفّنا، وكأننا ذاهبون لملاقاة حتفنا.. فقد كانت بغداد كل حياتنا، فكيف لنا أن نتصور حياة أخرى بلا بغداد..

بعد ساعات من عذاب عند نقطة التفتيش، ساعات لا أعتبرها محسوبة من تاريخ حياتي، كلما مرَّ طيفها أحذفه سريعاً، أغيبه بذكرى أخرى، لأتمكن من البقاء حياً... داعب النوم جفنيّ أخيراً، وسمح لي بفترة استراحة من الهواجس والأفكار الكئيبة..

ظننت أنها إغفاءة قصيرة، لكنها كانت أشبه ما تكون بغيبوبة، صحوت بعدها لأجدنا قد وصلنا إلى الحدود السورية..

لحظتها شعرت براحة نوعاً ما، فعلى الأقل ستكون أسرتي بأمان، إلى حين يتدبر والدي أمور الهجرة إلى الدانمارك كما خطط لنا لنعيش هناك بطمأنينة، ريثما تستقر الأوضاع فنعود لنقبّل تراب الوطن.

واستقبلتنا دمشق بحفاوة المشتاق، ومدّت راحتيها لنعبرهما بسلام، واحتوتنا شوارعها بحنان أخ صدوق همّه مداواة الجراح..

في قدسيا، كان ينتظرنا عبد الله صديق والدي القديم ليأخذنا إلى شقتنا التي استأجرها لنا بناء على طلب أبي، الذي حرص ألّا نتوقف في الشارع دقيقة، وأن نستقر على الفور هناك..

قادنا إلى الشقة عبر أزقة ضيقة، وانتهينا إلى بناء قديم من طابقين، يبدو من الخارج مسناً، عمره خمسون عاماً أو أكثر، أسواره مطلية بالأخضر، وتتدلى عليها ياسمينة حسناء، تحرسها شجرة نارنج كبيرة، وشجرة ليمون وتتبدى من حديقته أزهار الورد البلدي الملونة..

تفاءلتُ خيراً بالمكان، وتمنيتُ لو كانت الشقة الأرضية شقتنا، ولكن خاب أملي، حين بدأ الجميع الصعود إلى الطابق الثاني عبر درج قاس مزعج خيّب كل آمالي..

- بالطبع لا يوجد مصعد ليساعدكم، عليكم الاعتماد على أنفسكم، واحذروا عند الصعود بالأمتعة والكرسي المدولب من السقوط، فبعض درجات السلم مكسورة، لم يتم إصلاحها..

اتبعنا التعليمات بدقة، وصعدنا إليها.. ليستقبلنا

مدخل صغير ضيق، يفتح على صالة بها ثلاث أرائك كبيرة، وطاولة تلفاز في إحدى زواياها، وثلاث غرف موزعة حول الصالة، ومطبخ صغير جداً لا يكاد يتسع لشخصين معاً..

وفي جانب الصالة باب مفتوح على شرفة صغيرة جميلة، تُظهر بعض شوارع دمشق بحيويتها وباعتها ودفئها، ويمتد إليها غصن ياسمين صغير، قد تفتحت منه بعض الزهرات البيض الجميلة، أشعرتني بأنه يد تصافحني بحرارة، معطرة بأريج الود والمحبة..

أمطرنا العم عبد الله بتوجيهات ونصائح لابد منها، كنا نتلقاها بشكل آلي، ونوافق عليها جميعها دون أدنى تساؤل.. وكأننا جميعاً قد اتفقنا ضمنياً أن نستسلم للمستقبل، مقابل أن نحيا بأمان..

أسبوعٌ مضى علينا هنا في دمشق، كان مزيجاً من معاناة، ورغبة في بدء حياة جديدة مفعمة بالأمل..

صهيب أحب المنزل، وأكثر ما كان يسعده هو البقاء على الشرفة الصغيرة قريباً مني، يتأمل صفحة السماء، ويشير إليها بفرح كلما مرّت طائرة مسافرة، أو غيمة عابرة، أو عصفورة مهاجرة.. فكأنه أسيرٌ أفرج عنه ليرى الشمس ويسعد بالحياة..

واعتنت أمي بفؤاد طويلاً، ولازمته إثر الحمى التي أصابته ليلة وصولنا.. فجعلته ينتفض من رعشة البرد،

وباغتته الكوابيس والأحلام المزعجة بين حين وآخر، فراح يهذي بكلمات شتى، كلها كانت تصب في إطار الرعب من عدو مجهول، يحاول قتله..

سكين، تفجير، رصاص.. كلها كانت مفردات تسبق صرخة رعب يطلقها، فنركض جميعاً إليه لنخبره أنه هنا بأمان..

وعلى الأعمال الكثيرة التي كان يقوم بها أبي من إصلاحات في المنزل، ترتيب وتنسيق.. إلا أنه كان يأتي كل ليلة إلى فؤاد، ليسرد عليه قصّة جميلة تسليه وتروح عنه حزنه وألمه.. وكنت أنتهز الفرصة لمَّا يحلو الحديث فأنصت مستمتعاً بقصص البطولة والشجاعة، والتغلب على الصعاب.. إنها جرعات العلاج اللازمة، والتي لم يبخل بها أبي يوماً على فؤاد منذ تعرضه لحادثة الاختطاف منذ شهور.. تلك الحادثة التي أذاقتنا لوعة حرب لم نكن يوماً سبباً فيها..

فذات يوم شاحب من أيام بغداد المنكوبة، اختفى فؤاد عن أعيننا، ولم يعد كعادته من المدرسة.. انطلقنا نسأل عنه فيها، ونستفهم من الأصدقاء والجيران، وما من مجيب، وكيف يتنبه أحد لفتى مثله، في تلك الفوضى، حيث يصعب على المرء إيجاد نفسه، فكيف به يبحث عن فتى يافع لا يعرف عن الدنيا إلا وجهاً مغبراً يخفي معالمها الحقيقية.. مضى

النهار سريعاً ليعود أبي من المخفر متعباً يائساً، ولأعود محملاً بخيبات أخرى، فلا أحد يعرف عنه أي شيء، حتى حل المساء رمادياً باهتاً، ورن هاتف المنزل، وإذا بصوت أخي ينبعث خائفاً مرتعشاً يطلب التحدث إلى أبي وكأنه لا يعرفني..

ناولته السماعة وقد كلح وجهي، وارتعدت جوارحي. واختطفها هو وكأنه يرى الواقعة أمامه..

ثم أغلقها بعد ثوان، وقال بصوت لا يكاد يُسمع:

- لقد اختطفوه.. إنهم يطلبون الفدية!

اقتربت أمي وسألته بلهفة:

- من هؤلاء؟ ولم يختطفونه؟ ما علاقتنا بهم؟ وهل هو بخير؟ ماذا أخبرك؟!

وكانت إجابته تمتمات متألمة اختصرت كل شيء..:

- إنه على قيد الحياة..

فكر للحظة، وضرب بقبضته على الطاولة، وصرخ..:

- الأوغاد، كيف يمكنهم أن يتمادوا إلى هذا الحد؟ كيف يمكنني تأمين خمسين ألف دولار في هذه المدة القصيرة؟

ومع أن دمعة طفرت من عيني أمي إلا أنها حاولت التهدئة من روعه، وقالت بإيمان كبير لا أدري من أين استمدته..:

- لا بأس يا عزيزي، لا قيمة للمال في سبيل أن نحيا بأمان معاً، ادفع لهم ما يريدون المهم أن يعود فؤاد..

لن أنسى نظرة أبي اليائسة إليها حين قال:

- لكنه يا ليلى مبلغ ضخم وتأمينه الآن شبه مستحيل..

أخفت أمي وجهها بيديها وكأنها تود أن تبعد كل ما حدث عن ذهنها، ثم رفعت رأسها وقالت:

- الأمر ليس مستحيلاً، سنبذل ما بوسعنا، المهم أن تستقرّ قلوبنا بعودة فؤاد سالماً..

ساد الصمت الحزين في منزلنا في تلك الآونة، فلا أحد يرغب في التحدث عن أي شيء إلا بلغة المال.. كنت أراقبهما وقد هجرهما النوم، يفكران في الطريقة الأسرع للحصول على النقود، ويسعيان بجد لتأمين المبلغ في المهلة المحددة، يتخليان عن أشياء كثيرة غالية في سبيل إنقاذ فؤاد، وكم أرّقني الهم والخوف عليه، بل على الجميع إن حصل له مكروه، وانقضت المهلة سريعاً، قدم والدي للصوص ثمرة جهده، وعرق جبينه الذي جمعه لأعوام طوال، وضحى بإرثه الذي تبقى له عن أبيه، والذي خبأه ليوم الحاجة، قال لنا: لن نمر بيوم أحوج من هذا، فليذهب المال إلى الجحيم، كان غير مبالٍ بشبه الإفلاس الذي وصلنا إليه، أخبرنا بأننا سنرمم وضعنا، ونستدين من الأقارب

حالما نخرج من الزوبعة.. وساهمت أمي بما جمعته؛ حصيلة عمرٍ من التعب والكدح، لم يصدقا أن جنى العمر قد يذهب في لحظة جنون، لكن ما دفعهما إلى التصديق هو أن كل ما يحدث كان جنوناً بحد ذاته!

وبعد انتظار مشوب بالقلق؛ أعاد المجرمون أخي العزيز فؤاد كما وعدونا مكتمل الحواس، دون أن يحتفظوا بيد أو رجل أو عين أو كلية، كما هددونا..

بدا فؤاد لنا غريباً مختلفاً متعباً منذ ذلك اليوم، لم يرغب في الحديث عن شيء، ولم يتناول لقمة من الطعام رغم محاولات حثيثة لإقناعه، عاد سالم الأعضاء، لكنه محطم القلب والفكر، ولتبدأ رحلة متاعب جديدة معه، كلما تفاءلنا بأنه قد تجاوزها، حدث ما يعيده إلى الوراء في أزمة جديدة، تعيد صورة شبح الخوف، فيعاني ويتألم، ونعاني أيضاً معه..

أسبوع مضى.. والألم يلملم ذيوله مغادراً، مستأذناً بإغفاءة قصيرة تبعده عنا، أو تبعدنا عنه.. وها هو كل شيء يلوح بالاستقرار.. والشمس تغادر نهارنا المسافر، ومستقبل ينتظرنا على شرفة الأيام، ونحن ننتظره بتوقٍ لأن نحيا حياة سعيدة، ونبني حطام أنفسنا المهلهلة من جديد.

الفصل الثاني

استيقظت على ضجيج أصوات متعددة، أوحت إلي أنني في ورشة حدادة أو نجارة، أو شيء من هذا القبيل..

كغائب عن الوعي من فرط التعب إثر سهر ليلة كاملة في التنسيق والترتيب لم تسمح لي جيداً باكتشاف الوضع الجديد، صوت طرقات خفيفة تشتد على الخشب، ضحكات صهيب المتقطعة يرافقها صوت الرسوم المتحركة التي حفظناها عن ظهر قلب منذ الصغر، وأيضاً صوت مذياع مفتوح على أغنية ذات ذوق متدنٍ مما أكد لي أن من يستعمله هو فؤاد دون شك.. و.. أصوات نسائية غريبة في الصّالة، أطفال يركضون، أناس يروحون ويجيئون.. وأحاديث غير مفهومة، إذ إنني لم أعتد على اللهجة الشاميّة بعد..

فضول دفعني إلى النهوض، وترك الكسل في يوم كل من فيه يتحرك بنشاط..

أدركت في لحظات أن البيت يعج بالضيوف، كلهن

جارات أتين يساعدن أمي في ترتيبه بعد أن تعرفن عليها منذ أيام، فأدركت أنني سأبقى محاصراً في غرفتي حتى حين..

فما إن عرفت إحدى الجارات بقدومنا من العراق حتى أرسلت قطع الحلوى وأكواب العصير البارد تنجدنا بها من لهيب الحر، إذ كانت الثلاجة مقفلة، ولا وجود للماء البارد في الشقة، وفي اليوم التالي أتحفتنا أخرى بطبق من الفتّة الشهية أرسلته مع ابنتها الصغيرة، وقد لقنتها كلمات لطيفة لائقة لترحب بنا، وتوطدت العلاقة بيننا وبينهم سريعاً، وتلاشى جدار الغربة القاسي عن وجه أمي.

أكثر ما أسعدني هو وجود من يقف إلى جانبها في هذه المرحلة، فليس هيّناً أن تقتلع من وطن لم تعرف سواه، وأهل وجيران وأصدقاء.. هكذا ببساطة، ولا تشعر بمرارة الفقد وأحزان الفراق..

نفضت النعاس عن كاهلي وتأنقت واستأذنت للخروج، حملت أوراقي الجامعية منطلقاً للتسجيل في جامعة دمشق، كما خططت مع عائلتي.. وذلك بشكل مؤقت ريثما نتمكن من الانتقال إلى الدانمارك حيث سأبني هناك مستقبلاً أفضل..

لم أكن متأكداً من إمكانيّة القبول، لكنني أردت ذلك بكل جارحة من جوارحي، لكيلا يقطع الطريق

علي بسبب الظروف، وتمنيت أن أحقق أمنيتي في النجاح، وأن أرسم لي مجداً شخصياً لا تدمره الدبابات، ولا تقذفه الطائرات، حتى إن مزّقوا شهادتي، سيكون العلم الذي أتلقاه هنا.. في عقلي..

وضع والدي في يدي المبلغ المطلوب للتسجيل وقال لي:

- أسرع قبل أن تقفل أبواب الموظفين في وجهك، وابذل ما بوسعك، أريد أن أفخر بك كما كنت دائماً.. الطالب الأول في الجامعة..

قبلت يده ومضيت ترافقني كلمات أبي الحبيب، فكأنما الدنيا فُتحت لي، وكأنني حظيت بالتخرج، وحققت كل ما أتمناه في لحظة رضا..

لم أسمح لنفسي بالضياع في دمشق، فقد جعلت عينيّ آلة تصوير تلتقط الصور المهمة، وتخزنها مع المعلومات اللازمة، حفظت في يوم واحد أسماء كثير من الشوارع والأحياء، واستدللت إلى المواصلات التي تقودني إلى الجامعة، عانيت قليلاً حتى استطعت أن أحظى بملامح موافقة، انتظرت لساعات، وكم غمرتني السعادة وأنا أخرج من الجامعة محملاً بورقة القبول..

نظرت إلى الطلاب حولي نظرة سعادة، تمنيت أن أخبرهم جميعاً أنني الطالب الجديد القادم من بغداد،

obeikandl.com

وتمنيت أن أصرخ، أن أحدثهم عن بغداد.. وما أدراك ما بغداد..

خفق قلبي اشتياقاً إلى جامعتي هناك، وهيجني حزني فلذت منه فراراً، لأحتفظ ببريق البشرى، كي أزفها إلى والديّ..

فزتُ يومها من والدي بكثير من العناق والقبلات والدعوات، لقد كان يوماً متميزاً لي في دمشق، ولعله اليوم المتميز الوحيد الذي عشته هانئ البال فيها..

عند المساء كانت أمي تهتم بصهيب، تنظف يديه ووجهه من آثار الطعام..

تأملتها بإعجاب شديد..

فمنذ أن ولد بإعاقته تلك وهي لم تتركه، ولد في ظروف صعبة، أيام بداية احتدام الحرب، ونشوبها بجنون، كانت ولادتها له متعسّرة، خشينا أن نفقده ونفقدها معها..

ليلة لا أستطيع استعادتها في ذاكرتي إلا نادراً، فهي تسبب لي كثيراً من المرارة والألم..

المستشفيات اكتظت يومها بالجرحى، إثر هجوم لا يمكن أن أصفه إلا بالإرهابي..

وهام أبي على وجهه يبحث عن طبيبة أو طبيب يقوده إليها..

صوت تألمها إثر المخاض كان يحزّ كسكين في قلبي، يعمل فيه تقطيعاً وقتلاً..

كل ما في تلك الليلة كان جنونياً..

القذائف تهاوت حولنا، واستمرت كل دقيقة، بإصرار تبثُّ الفزع في نفوسنا، صرخات الأطفال في الخارج، أصوات الرجال والنساء التي شابها الرعب، كلها انتقلت إلى ذاكرتي لتعمّها بالسواد.

وأمي في غرفتها تتألم..

طوى فؤاد جسمه وكوّره داخل السرير خائفاً، مع تلقيه الأوامر مني بألّا يتحرك..

تمنيت أن أخرج لكنني خشيت أن أتركها وحدها، كان أبي يقوم بمهمة بطولية في الخارج، يتحدى الرصاص والقذائف المنهمرة كالمطر..

ولما لم يجد حيلة، عاد يائساً متألماً.. طرق أبواب الجيران يطلب أن يرسلوا نساءهم لمساعدتها..

تطوعت اثنتان منهما، وبدأتا المحاولات العسيرة..

كنت أساعد أبي في تسخين الماء، ولم أره في حياتي في حالة قلق كما كان..

دموعه التي تساقطت بين حين وآخر ومسحها بإباء فيما كان يلهج بالدعاء، جعلتني أتحرك سريعاً لنجدته، كخادم مطيع، أتحرى الفكرة في عينيه، وأهب

لنجدته.. وشاركته الدعاء في سرّي أن ينقذ الله أمي وجنينها، وأن تمر الأمور على ما يرام..

مرت ساعة تلتها أخرى، ثم ملأ البيت صراخ المولود الجديد، وأتتنا البشرى ففرحنا فرحاً غامراً، بقدر القلق الذي تجرعناه..

طلع الصباح لتهدأ القذائف، ولنرى الوليد الجديد الرائع يغفو بسلام قرب أمي، ولنكتشف بعد مدة إعاقته..

منذ ذلك الوقت، نذرت أمي نفسها للعناية به، وكنت أراقب إصرارها وتحديها لكل المشكلات والأزمات التي تعتريه..

كافحت طويلاً من أجله، ومن أجلنا أيضاً، وضحّت براحتها من أجل أن نكون بخير.. وبقيت تردد دائماً أننا محظوظون كثيراً عن بقية أطفال العراق الذين يعانون التشرد والخطف، ينامون في الشوارع تحت القصف، ويتغذون على فتات ما يجدونه، لتهلكهم الأوبئة، ويغزوهم المرض، في ظروف ولدوا ليجدوها تحاصرهم بلا رحمة..

أربع سنوات قد مضت، وأمي في صبر بلا حدود.. تواصل مهمتها بشجاعة، أقرأ في عينيها السوداوين الواسعتين كل الأمل فأبتهج..

لكن الأمور لا تجري دوماً كما نحب ونشتهي، ففي أحد المساءات عاد والدي معكر الوجه مكتئباً..

أسرعنا إليه أنا وأمي نسأله عن الخطب..

كان منزعجاً بشكل كبير يحاول السيطرة على انزعاجه وإظهار صلابته، ولكن عبثاً، فالأمر فوق الاحتمال..:

- لقد كذب علي ذلك الرجل المدعو فادي، أخذ ثروة من المال على أمل تأمين سفر لنا إلى الدانمارك عبر تركية، قال إنه سيرتب كل شيء في وقت قياسي ولكنه اختفى فجأة ولم يتصل، وها هو هاتفه مغلق.. لقد وقعنا فريسة بين مخالب محتال محترف.. كان علينا أن نستقر هنا لعام أو لبضعة شهور، لكن الأمور اختلفت الآن، وبتنا رهائن الخديعة والمكر... والفاقة أيضاً.

لم تستطع أمي أن تقترح عليه أي شيء، فهي تدرك أنه واثق مما يقوله، وأنه تقصى واستفسر.. إذن فالأمر حقيقي، ولا حيلة الآن سوى الاستسلام..

obeikandl.com

الفصل الثالث

ومضت الأيام سريعاً تحاصرنا في زاوية ضيقة، تطاردنا بمشكلات وخيبات لم نكن نتوقعها أو نلقي لها بالاً، تسلبنا الأمن والراحة والسعادة، لتشعرنا بأننا مهددون مهما تجنبنا الحرب، فهي معنا ترافق خطواتنا أينما سرنا..

في تلك الفترة وقف العم عبد الله مع أبي موقفاً رائعاً واستطاع أن يؤمن له عملاً في الحسابات في المعمل الذي يشتغل فيه..

تلك الخطوة خففت كثيراً من عناء أبي وانزعاجه بسبب المال المفقود، فمادام المرء حياً فإن بإمكانه أن يتفاءل ويأمل..

المرتب كان عادياً لكنه كاف ليغطي مصروفاتنا..

واقترحت أمي علينا أن نقتن في استهلاك بعض الكماليات، لعلنا ندخر ما يكفي لنبني مشروعاً أو حلماً جديداً..

سارت الأمور على ما يرام، لولا أن أخي فؤاد قد

عاد إلينا ذات مساء يحمل قراراً نهائياً وقاسياً ألقاه في وجوهنا كقنبلة دون أدنى رحمة..:

- لقد قررت ألَّا أكمل دراستي أبداً..

عم الصمت للحظة، كنا جميعاً في حالة مفاجأة، لم نتوقع أبداً هذا الإشعار الصارم من قِبل فؤاد..

- تعال يا ولدي.. اجلس هنا قربي وأعلمني ما المشكلة..

قالها أبي متحاملاً على غضبه، محاولاً استيعاب هذه المشكلة قبل أن ينفجر...

لكن أخي جلس منحازاً في مكانٍ وحده، وقال ببرود، وكأنه يحلم..:

- إنني لا أجد نفعاً من الدراسة، لست مقتنعاً بأن أقضي حياتي بين أكوام الكتب، ثم.. ما الفائدة منها؟ هل المتعلمون يجنون مالاً أكثر؟ هل هذه مقاييس الناجحين؟!..

- ولدي العزيز، لو عرفت ما في التعليم من خير لما قلت هذا الكلام، أريدك كأخيك أن تنجح وتتفوق، وتنتسب إلى إحدى الجامعات، لتكون شخصية متميزة..

انتفض فؤاد كمن لدغته عقرب، وقال بغضب:

- لقد سئمت هذه الحياة، سئمت من أوامر الذهاب

إلى المدرسة، كرهت المدرسة التي لم أعرفها إلا خراباً، ومللت من التنقل من مدرسة إلى أخرى؛ فواحدة بسقف مهدم، وجدران متشققة، وأخرى بلا طاقم تدريس أو مدير، وثالثة بلا طلبة..! في الأمس مدرسة في بغداد، والآن مدرسة في دمشق، وأنتم تقولون إننا سنسافر إلى الدانمارك.. لا أطيق كل هذا، ولم تعد هذه الحياة تروق لي، وكل الكلام الذي في الكتب لا يعجبني..

سألته أمي بنبرة غضب، فقد فاض بها الكأس هي الأخرى..:

- وما الذي لا يعجبك في الكتب يا سيد فؤاد؟

- كل شيء.. كل شيء..

كلما فتحت كتاب القراءة وجدت دروساً عن الوطن الجميل السعيد، وأنا لم أعرف وطناً بهذه المواصفات، وإن أردت تعلم أنشودة، علمونا أنشودة عن العَلَم، وأنا إلى حد الآن لا أعرف للعراق علماً معتمداً لأرسمه أو أحيّيه..

الكتب يا أمي تتحدث عن الطيبة والتسامح والصدق وحسن الأخلاق..

وكل ما وجدته في بغداد هو القتل والتخريب والدمار..

- لكننا هنا في دمشق، ستختلف الأمور، وستحب الدراسة يا حبيبي... قالت أمي محاولة إيجاد فسحة من أمل، لكنه صرخ قائلاً:

- لقد كرهت المدرسة.. لا أريدها.. فكل ما فيها محض أكاذيب يصدقها الطلاب الحمقى.. هذا قراري النهائي ولن أرجع عنه أبداً..

فجّر فؤاد قنبلته في وجوهنا، وتركنا نتلفت بعضنا إلى بعض في حيرة، وأعيننا تنطق بالمرارة..

لقد كان محقاً فيما قاله.. فهو لم يعرف عن الوطن إلا ما قد رآه، وهو لم يعش بغداد سنوات الأمن والسلام والاستقرار..

شبّ على هذه الحياة منتظراً معلماً يوجهه أو مربياً يسانده، لكنه اصطدم بكوارث الحرب، بالإرهاب والرعب والخطف، وفقد أغلى أصدقائه قبل الرحيل، شاهده مرمياً على الأرض كخرقة بالية، لم يستطع فهم الحرب وقوانينها، لم يحتمل قلبه بشاعتها، فأي قانون قد يقنعه بالعدول عن رأيه، وهو القادم من بلد لا يحكمه القانون؟ وأي مبدأ قد يساعده في أن يعدل

obeikandl.com

عن رأيه، وكل المبادئ قد تلاشت وضاعت مع ضياع الحرية؟..

أقفلنا تلك الجلسة الكئيبة دون قرارات، وانهزمنا إلى النوم، وفي ذهن كل واحد منا تساؤلات مؤلمة، وخيبات أمل كبيرة، أغمضنا أعيننا بصعوبة، أملاً في أن يحمل النهار معه الفرج القريب.

وفي اليوم التالي عاد أبي إلينا يحمل مشتريات البيت ولوازمه، الحلوى التي يحبها صهيب، ومجموعة أدوات مدرسيّة متميزة أظنها كلّفته مبلغاً لا بأس به من المال.

فهمت أمي الخطة وقررت مشاركته، فأبدت اندهاشها وإعجابها الشديدين بما يحمل، وانضممتُ إلى الفريق، وأبديت ذهولي أنا أيضاً، وأخبرتهم كم تمنيت في صغري أن أحظى بأدوات كهذه..

كل ذلك فعلناه على مرأى من فؤاد الذي حاول مجاهدة فضوله، لكنه لم يستطع في النهاية فاقترب ليكتشف الأمر..

نظر إلي نظرة باهتة بعد أن تفحص الأشياء، فبدا لي معجباً بها أشد الإعجاب، ثم تغيرت نظرته وقال بجفاء:

- إن كانت تروقك إلى هذا الحد يمكنك أخذها معك إلى الجامعة فأنا لا أريدها..

قال ذلك وانصرف إلى غرفته معلناً على نفسه حظر التجوال، ومصدراً قراراته الظالمة في حقنا؛ بعدم المحاولة معه لإنقاذه من قعر البئر المظلمة التي ألقى بنفسه داخلها بكل تهور!

لم يتمالك والدي نفسه، فصرخ بنا:

- تدبروا أمر هذا الولد، لقد تعبت منه، سيصيبني بجنون قريباً إن ظل على هذه الحال..

حاولت أمي تهدئته على طريقتها لكنه جلس ببؤس وقد غمر وجهه براحتيه وهو يفكر في أسى..

قال لنا بصوت لا تكاد تتضح معالمه..:

- لقد تعبت.. حقاً تعبت..

قضيت الأيام في بغداد ألاحقه من شارع إلى آخر، قاتلت من أجل أن أحميه من عصابة المتشردين التي تعرفت إليه، وكادت توقعه في شراك السلب والنهب والسطو على المنازل، وكدت أجن خوفاً عليه يوم اختطفوه، وها هو صديقه عمر يلقى حتفه، ومن يدري لو بقينا مزيداً من الوقت لكان هو الآخر قد لحق به..

تعلم التدخين خلسة، فصَمَتُّ لعله إن واظب على المدرسة يلتقي أصدقاء خيِّرين، ينتشلونه من بؤسه، وأصبح مستهتراً بكل شيء، بالعلم.. بوالديه.. بكل ما حاولت تعليمه إياه..

بؤساً لتلك الحرب التي غسلت أدمغة أبنائنا، وحولتهم إلى مشردين وضائعين.. هياكل بأرواح فارغة.. كالخُشب المسندة..

قام أبي بصعوبة، وسار نحو النافذة، فتحها وأخذ نفساً عميقاً، وصمت طويلاً.. وصمتنا جميعاً.. ليأتي صوته حزيناً يزلزل أفئدتنا..:

- أنا الذي رجوت أن يشب قوياً ناجحاً يعرف طريقه، وبنيت أحلاماً كبيرة عليه، ها هو يتمرد، ككل شيء حولي..

أخبراني.. ما فائدة الحياة دون أمل؟!

أمسكت أمي بيده تحاول تهدئته، وطلبت منه أن يرتاح في سريره، وألَّا يفكر في أي شيء..

وجهه الشاحب لم يكن لينذر بخير، كل ما فيه يوحي بالمرض والانهيار، وهو الواثق دائماً والينبوع الذي طالما أمدنا بالثقة وتجاوز معنا العقبات..

فكرت في أن أقوم بشيء ما، محاولة لمساعدته، أردت أن أحمل معه بعض الثقل؛ مع أن بركاناً قد بدأ يثور في صدري ضد فؤاد، يشعرني بالرغبة في قتله..

تحاملت على نفسي وقررت أن أسير معه حتى النهاية، فكرت في مبارزته بطريقة مختلفة، إنه يحب

التحدي، فلم لا أشعل تلك الشعلة في صدره، لعلها تضيء..

دخلت الغرفة فوجدته في جلسته المعتادة، متكوراً على نفسه، جاعلاً الوسادة أقرب ما تكون إلى قلبه، وقد دفن رأسه في أعماقها، يفكر في شيء ما..

لما أحس باقترابي انتفض، ونظر إلي نظرة وحشيّة، وقال:

- إن أردت أن تطلب مني العودة إلى الدراسة فلا تتعب نفسك ووفر وقتك..

ابتسمت وما زالت النار تتأجج في داخلي غضباً منه، وأجبت:

- لا يهمني حقيقة مسألة دراستك، فهي أمر شخصي، قراره راجع إليك..

بغضب مازالت آثاره على وجهه:

- ليت والدي يفهم هذا الأمر بدلاً من إتعابي كل حين بأوامره..

- سيفهم يوماً.. لا تقلق..

obeikandl.com

وجدت أنه قد تجاوب معي قليلاً فاقتربت منه أحادثه بدفء أخوي:

- أخي فؤاد.. تبدو أعصابك تالفة..

فكّر معي.. منذ متى لم نرفه عن أنفسنا؟ منذ متى لم نخرج في نزهة ما، ولم نتناول المثلجات، ولم نلعب كرة القدم..

سمعتُ أن في دمشق هنا حديقة تدعى السبكي جميلة واسعة، يتنزه فيها البط، ويسبح مع صغاره في بركها، ويمرح الأطفال فوق البساط السندسي، وتظللها الأشجار الوارفة..

ما رأيك أن نزورها هذا المساء، فنحن لم نر شيئاً من هذه المدينة سوى هذه الشقة البائسة والحي الكئيب، وقد حفظنا الطريق إلى البقال، وبائع الحليب، وحفظنا وجوه أهل الحي أيضاً فلم لا نعمل على التغيير؟..

كان عرضي إنقاذاً بالنسبة إلى فؤاد، لقد نظر إلي غير مصدق لما أقوله، ورحب كثيراً بالفكرة..

على الفور تأنقنا كأخوين رائعين، وتقاسمنا زجاجة العطر مناصفة، فقد قام بسكب نصفها على نفسه،

obeikandl.com

وتصرفت كمراهق بارع فسكبت النصف الآخر، رغم تعرضي لخطر الموت اختناقاً من ذوق أخي المميز في اختيار العطور القوية، وسايرته في تسريحة الشعر المتميزة التي يفضلها، وأذعنت لطلباته في أن يصفف شعري على هواه..

بدوت في المرآة كقنفذٍ حقيقي، ووضعت على جرحي ملحاً وانصرفت معه..

لوحت لي أمي قبل المغادرة، وأشارت في صمت مستفهمة عن سبب الخروج، وأشرت بيدي مطمئناً فابتسمت بسمتها العذبة الرضيّة، وجعلتني أطير فرحاً، وكأنني حققت نصراً أو فتحاً مبيناً..

وانطلقنا إلى الحديقة..

عجيب أثر الطبيعة في النفس، يأسرها من حيث لا تعلم، ينتشل عنها الوجع ببلسم خفيّ شافٍ فلا تلبث أن تتعافى، وهي تستمد من ألوانها المنسجمة طمأنينتها الخاصة..

تأملت المكان حولي، فخلت أنني في جنّة، وتذكرت الحدائق التي كنا نرتادها في بغداد معاً، فنلهو حتى نتعب، ونصطحب كرة القدم وكرات المضرب، وسلة

كبيرة تحوي كماً هائلاً من الطعام يكفي قبيلة أخرى معنا، فنأكل حتى نشبع، ونشرب حتى نرتوي، ونتقاسم كل ما معنا مع الأطفال العابرين، فنضحك ويضحكون، ونكوِّن كل مرة صداقات جديدة، ونعجب أننا لم نصادق كل أهل المدينة بعد، فنحن هناك في دوام منتظم..

لون السماء بدا بديعاً في زرقته، تتداخل فيه ألوان السحب المتماوجة بأشكالٍ شتى، وألوان تتراوح بين الأصفر والأرجواني والبرتقالي، وقد سمح النسيم لماء البركة بالتحرك عبر موجات بطيئة رائعة، وانعكس بعض الضياء عليه فتلون بلون الذهب.. فيما قامت الخضرة المحيطة بكل ذلك بدور رائع في بث السعادة والانشراح في النفس، مما وهبني خفة في الروح لم أفهم كنهها، وأظن أن أخي كان مثلي، فقد ارتاحت تقاسيم وجهه، ولمعت عيناه فبدت وسامة أخفتها الأيام الماضية في عبوسه الدائم، وظهرت على السطح ملامح الطفل فؤاد، تلك التي كنت أحبها، وابتسامته البريئة العذبة التي طالما بددت عن نفسي كل هم..

جلسنا بمحاذاة البحيرة الصغيرة، نرقب أفراخ البط تتبع والدتها بنظام رائع، تلاحقها أينما ذهبت، وتسلك الطريق الذي تسلكه البطة الأم فلا تحيد عنه..

دون سابق تخطيط قلت بدهشة:

- عجباً لهذه الأفراخ الصغيرة الجميلة، كيف تتبع

أمها بثقة تامة، تلاحقها خطوة بخطوة، ولا تفكر أبداً في أن تنشق عنها أو أن تسبح وحدها بعيداً..

بعفوية أجاب فؤاد وهو يشاركني التساؤل والدهشة:

- لابد أنها تدرك أن مصلحتها في أن تتبع الأم، فإنها إن سبحت بعيداً قد تتعرض للمخاطر، وقد تضيع فلا تعرف طريق العودة إلى مأمنها..

ابتسمت وقد أدركت أنني قد أوقعت أخي العزيز في الفخ وقلت له:

- الآباء عموماً يعرفون الأصلح لأبنائهم..

ارتبك وقد فهم المغزى، وأجاب صمتاً..

- كانت الدموع محتبسة في محجر والدك وهو يتحدث عنك، لم أره متألماً كطائر جريح هكذا من قبل.. إنه يحبك كثيراً يا أخي.. تذكر أنه ترك بغداد من أجلنا، لقد سمعته مرات ومرات يخبر أمي برغبته في الانضمام إلى المقاومة، لكنه كان قلقاً على مستقبلنا ومصيرنا، فآثر أن يحمينا هنا..

أتذكر عندما قرر السفر، وراح يراسل أقاربنا في الدانمارك وعمّان والإمارات يسألهم عن إمكانية قدومه وتوفير حياة كريمة لنا؟

لم يكن ينام الليل همّاً وقلقاً من أمنيات قد لا تتحقق، إلى أن أنقذه صديقه بدعوته تلك، وبتأمين

عمل فوري هنا، يومها استبشر، وعادت إلى وجهه البهجة، خرج رغم خطورة الأوضاع ليقوم بإجراءات خروجنا، وها نحن هنا نطعنه في الظهر مكافأة له على تعبه..

كن حراً يا أخي كما تشاء، فما عدنا نرجو منك أي شيء!

أخرج لفافة تبغ وأشعلها دون أن يكترث لوجودي، فنهضت وتركته وحيداً يفكر في كلامي، ومضيت أتجول في الحديقة، وما عاد جمالها يبهجني كما أبهجتني النظرة الأولى، ولم أعرف هل الظلام قد خيّم فجأة، أم أنا من بت أرى الدنيا حولي قد تلفعت بالسواد..

جلست وحدي في مكان بعيد عن فؤاد أفكر في هذه الفوضى التي تجتاح حياتي، تمنيت لو حظيت بقليل من ترتيب لها، وهفت نفسي إلى أصدقائي في بغداد، فقد كانوا صندوق أسراري ومصدر راحتي وطمأنينتي..

صدح أذان المغرب من مسجد مجاور، فأسرعت إليه أغسلُ همي.. غبتُ قليلاً ثم عدت إلى مكاننا أنا وأخي، فوجدته مازال ساكناً بلا حراك.. انقبض قلبي وخشيت أن يصاب بأزمة نفسية جديدة، وهو الخارج من واحدة قريباً، مددت له يدي بمحبة وناديته:

- لنذهب يا أخي إلى البيت.

نهض بصمت وسار إلى جواري، نسلك معاً طريقنا إلى الشقة، وكأن الطير على رؤوسنا..

أوصلته إلى البوابة الرئيسية، وعرجت على مكتبة قريبة لأشتري بعض المراجع المطلوبة لدراستي، لم أدر في الحقيقة هل كان شراؤها ملحاً الليلة، أم أنني أردت الترويح فحسب، من كدر ألَمَّ بي..

سعدت أن قد أدركت دواء نفسي، فقد نسيت كل شيء في عالم الكتب، وكان صاحب المكتبة رجلاً في الستين، مهيب المنظر، متوسط القامة، له بشرة بيضاء وردية، وملامح تنم عن صفاء وجمال داخلي، نظرته بدت أبويّة شديدة العذوبة، وهو يراقب تجوالي الحائر..

لم أعرف هل بدوت حزيناً جداً وغريباً جداً ومولعاً بالكتب لحد أن يلفته وقوفي وتقليبي النظر في عناوين الكتب..

أتاني صوته من الداخل..:

- تعال هنا يا بني.. تبدو لي حائراً.. هل أخدمك بشيء؟!

الفصل الرابع

أجمل ما في الحياة أن ينبت لك في كل بستان صديق حميم، قد لا تعرفه مسبقاً، قد تجهل اسمه، أو يثير استغرابك الفارق العمري بينك وبينه، ولكنك تجده في النهاية صديقاً مخلصاً تستند إليه بعد معركة من المتاعب، لتجد معه الراحة والسكينة..

وهكذا كان لي الأستاذ سليم، مالك المكتبة الرائعة في حيّنا، في ساعة من الزمن تعرفت إليه، وكأنني أعرفه منذ عشرات السنين، جلسنا وتحادثنا، وضحكنا.. إنه رجل حقيقي، واسع الاطلاع والمعرفة، صاحب رأي سديد وحكمة ونظر ثاقب..

سألني ماذا أريد، وأجبته:

- كتباً ومراجع.. للإيجار..!

ابتسم وقال:

- لكننا لا نؤجر الكتب بل نبيعها..

بعفوية قلت:

- يجدر بكم أن تؤجروها، من أجل الربح وتشجيع الثقافة ومساعدة الجيل الواعد أيضاً..

ابتسم وهو ينظر إلي بعمق، ودعاني إلى الجلوس..

- أنت عراقي أليس كذلك؟

- أباً عن جد..

- من أي مدينة أنت؟

- بغدادي بجدارة..

- حسناً أيها الشاب البغدادي الذكي، يبدو أنك تاجر أيضاً أباً عن جد، ومثقف بجدارة، سأحقق لك طلبك على الفور، خذ ما تحب من المراجع، وخذ وقتك في الاطلاع عليها..

فلدي ابنة في مثل عمرك، وأفهم ما يحتاج إليه الطالب في هذه المرحلة، أضف إلى ذلك أنني قد أحببتك، وعندما أحب شخصاً تتلاشى كل الحواجز بيننا..

شكرته بحرارة، وحملت كتبي الثقيلة ومضيت بروح تجددت، ورغبة في تعويض ما فاتني من محاضرات قد اشتعلت..

فتحت باب الشقة، لأجد الوضع هادئاً جداً..

obeikandl.com

قفز نظري إلى الطاولة فوجدت الأدوات المدرسية والدفاتر قد اختفت..

قلت لنفسي إن أمي أخفتها عن ناظر أبي لكي تتجنب تجدد غضبه، لكنني فوجئت وأنا أدخل الغرفة بفؤاد يكتب اسمه على الدفاتر، وقد تبعثرت كل الأدوات حوله، وبدا مشغولاً بها حتى النخاع..

لم أتمالك نفسي من الفرح، أسرعت إليه وعانقته، وهطلت كلمات المديح من فمي كالمطر..:

- أنت هو الرجل الذي يعتمد عليه، ستكون شخصاً رائعاً في المستقبل..

وبكبرياء وعجرفة كان ينظر إلي بطرف عينه وهو يقول:

- لا تزعجني الآن فأنا مشغول!

عاد الهدوء المطمئن إلى بيتنا، وعادت ضحكات صهيب تعلو فلا تطغى عليها أصواتنا النشاز فتمحو جمالها..

صهيب الذي طالما أرعب كل ناظر إليه برأسه الكبير وعينيه اللوزيتين المتجهتين إلى أعلى وجفنيه

obeikandl.com

السميكين اللذين يعلوهما حاجبان كثيفان، كان دائماً أجمل الأطفال في نظري، كلما رمقه أحد بنظرة شفقة وحزن، محوتها بتحية إعجاب وفخر..

ليس ذنبه أنه قد ولد منغولياً كضحية من ضحايا الحرب الباردة بتأثيرها النفسي السلبي، وليس ذنب والدتي إذ إن الحرب قد بددت كل الطمأنينة في نفسها، وحولتها لتعيش حالة توتر دائم..

أطل صهيب على حياتنا وكنا ننتظره بشغف، أتانا يحمل ذكرى الحرب وطابعها، وقسوتها وإرهابها في داخله..

أحببناه جميعاً، ربما عطفاً في البداية وشفقة عليه وعلى أمي التي فجعت به، لكنه عندما كبر سنواته القليلة، بدأنا نلمح عليه مظاهر ذكاء حاد، وقوة في الفهم، فهو يفهمنا وإن صمت، ويجعلنا ندرك ما يريد بإصرار حتى نحققه له..

هاهو بصعوبة ينطق كلمة شكراً، التي عانت أمي كثيراً حتى علمتها إيّاه، وهو يتلقى مني أول هدية في دمشق، سيارة صغيرة حمراء، اشتريتها له بثمن بخس مما تبقى من مصروفي، وإن كنت أدفعه كاملاً لأقرأ تلك البسمة على شفتيه..

أغمره بين ذراعيَّ وأحركهما له، فتتبعهما عيناه باهتمام وسرور باد على صفحة وجهه..

تراقبنا أمي مبتسمة هي الأخرى، ونحن نمرح معاً كطفلين في عمر واحد، نمرح أخيراً بسلام دون أن نضطرب لصوت تفجير مباغت يعكر صفونا، وننعم بالسكون، تلك النعمة التي لم نكن نلقي لها بالاً من قبل.

ونلتف جميعاً حول المائدة، بترتيب تعودناه..

والدي في رأس المائدة وعلى يمناه أمي، وصهيب، وأنا وفؤاد من الناحية اليسرى، نبتلع مشكلاتنا مع كل لقمة، ونحاول أن نتجاوز عقباتنا، وأن نشرب بعض الآلام سائغة في سبيل أن نصل إلى أهدافنا.. ويأتي يوم آخر جديد..

وترتسم ملامح جديدة على وجه أبي..

ملامح لم أستطع فهم سببها، فهو يغادر البيت والتعب بادٍ عليه، قد طبعت الشمس الحارقة بصمتها على وجهه ويديه، فاسمرّ لونه مشوباً بشيء من شحوب..

جسمه القوي قد نحل كثيراً في مدة وجيزة، وشهيته للطعام قد قلت كثيراً..

انقطعت أحاديثه المرحة عن العمل، وتلاشت قصص من ذكريات قديمة كان يتحفنا بها في المساءات الدافئة.

أسئلة عابرة عن أحوال الدراسة كانت هي كلماته الوحيدة لنا، حتى أمي لاحظت عليه هذا التعب، وكلما طرحت عليه سؤالاً تستفسر عن الأمر، أخبرها بأنه مرهق قليلاً في عمله، ويحتاج إلى الراحة..

قلبت الأمر في ذهني، فأنا أعرف أن أعمال الحسابات في المصنع الذي يعمل فيه قد ترهقه ذهنياً، لكن كما أراها الآن فهي تستلّ صحته، وتقتات على قوّته..

والدي الذي كان دائماً مثالاً رائعاً لي في القوة والتحدي، قد بدأ يضعف، وسرّ البهجة في حياتي قد بدأ يخبو..

نظرة والدي المنطفئة إلي وإلى إخوتي أقلقتني كثيراً..

إنه الآن في نظري أشبه بآلة، تعمل من أجل جني المال وتأمين حياة كريمة..

وتلك النقود التي ينقدنا إياها كل صباح باتت تلسعني في يدي، لعلها قطرات عرقه وكفاحه وصمته، كل ذلك كان يقتلني في الصميم..

أنظر إلى فؤاد وهو يحتفي بها، فأتمنى لو كنت مثله، لتلاشى ذلك الضجيج الذي يسكنني..

obeikandi.com

والدي في محنة ولا شك، يحاربها وحيداً في صمت، وثمة سر كبير يضمره، يطوّق سعادته، ويحكم الخناق عليها..

هذا ما توصلت إليه بعد طول تفكير وعناء، وأضمرت في نفسي أن أكتشفه.

obeikandl.com

الفصل الخامس

في محيط الجامعة الواسع كنت وحيداً دائماً، رغم الازدحام الدائم، والوجوه الطيبة التي طالما أشعرتني بالراحة، وكأنني كنت معها منذ السنة الأولى..

الكل كان يعاملني معاملة شبه خاصّة، منذ اللحظة الأولى لأنني عراقي، بملامح عراقية، ولهجة عراقية. اقترب أحدهم وسألني بلباقة:

- هل صحيح أن الأخ عراقي؟

وأجبته موافقاً، فدعاني إلى الجلوس معه على العشب، ونادى رفاقه، فتجمهر حولي الطلاب يسألون بلهفة عن أوضاع العراق، ويستفسرون عمَّا يحدث هناك، وكأنني الرجل الخارق الذي هبط من أرض الموت بجسارة، ليختار دمشق له مقراً، وكأني العبقري الذي يعرف إجابات كل الأسئلة، ومع ذلك كنت أجيب..

كانت بعض استفساراتهم مترهلة، وبعضها في الصميم، وكنت أجيب مع ذلك عن ما يمكنني الإجابة عنه، لكنها لفتت نظري بأسئلة عميقة تطرحها

كصحفيّة متمرسة، بعضها لم أجد لها جواباً، فيما كنت أفكر طويلاً قبل أن أجيب عن بعضها الآخر، فكأنني أطرحها على نفسي إذ إنه لم يتسن لي الوقت الكافي لأن أفعل ذلك من قبل..

- ماذا حل بالمجاهدين العرب؟

- "منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر"..

وسألني آخر بلهجة أغاظتني..:

- لماذا يقوم الإسلاميون بحركات التفجير في الأسواق ويقتلون الأبرياء؟ أهكذا يمثلون الإسلام؟

- سؤال صعب، ولكن لا تثقوا بكل ما يقال، فهناك قد يحصل أن تكون سائراً في الشارع، فتخطفك جماعة مجهولة، يكممون فمك، يقيدونك، وقد يخدرونك أيضاً، ثم يضعونك في سيارة مفخخة مستعدة للانطلاق، ويتحينون الفرصة التي يتجمهر بها عدد لا بأس به من البشر في مكان ما، ويدعونها تنفجر بك، وذلك بعد أن يرفقوا معك دلائل تشير إلى أنك تنتمي إلى فئة أو طائفة معينة يعادونها هم، وهكذا تكون قد نجحت مهمتهم، وخسرت حياتك، وحياة كثير من الأبرياء معك..

وسألني أحد الشبان عن حقيقة المقاومة:

obeikandl.com

- ماذا عن المقاومة المزعومة؟ هل هي حقيقة أم مجرد وهم؟

كنت أتمالك نفسي من حزن وغضب بعد كل سؤال يطرح، وأحاول أن أخبرهم الحقيقة فقط، لا شيء آخر سواها، فكثيرة هي المفاهيم التي اختلطت في أذهان الناس، وكثيرة هي الحقائق التي زورت عن سوء نية وقصد..

- المقاومة تشكلت من أبناء العراق المخلصين لمقاومة الاحتلال الغاشم، هدفها تطهير البلاد من دنسهم، وهدفها أيضاً حماية الأبرياء لا قتلهم، وهي مستمرة حتى النصر المبين بإذن الله.. لكن ما تقوم به بعض الحركات المشبوهة من قتل للأبرياء وتفجيرات، وترويع للنساء والأطفال فالمقاومة بعيدة عنه كل البعد، لكن ما يحدث يستهدف أن تتزعزع صورتها في عيون الناس، وأن تشوه صورتها، ولكن أنى لهم ذلك، فالعراقيون يدركون حتماً من معهم، ومن هو ضدهم.

سألتني ثانية:

- سمعت كثيراً عن أحوال أطفال العراق، أخبرني ماذا يحدث لهم..؟

صمتُّ طويلاً وصورة صهيب تتراءى لي، ولم تتمالك

obeikandl.com

دمعة أن هطلت، وقلت بتماسكٍ تصنعته لأحتفظ بكبريائي..:

- لدي أخ وُلد منغولياً بسبب أحداث الحرب، وآخر لا ينام إلا قليلاً إذ إنه يعاني الكوابيس كل ليلة، فلا يعرف الهدوء ولا الأحلام السعيدة التي يراها الأطفال..

وسألتني أخرى..:

- لماذا لم تنضم إلى المقاومة، تبدو لي قوي البنية، فلم تؤثر نفسك على وطنك؟

فكرتُ للحظة وقلت:

- لأني أود أن أدافع عن وطني بما أمتلكه من علم؛ فالوطن يحتاج إلى السيف والقلم معاً، إلى العقل والقوّة.. ولو أتيحت لي فرصة للدفاع عنه لما توانيت..

تقطعت كلماتي، ولم أرغب في مزيد من حديث، وانصرفت إلى أول مقعد يحتويني في حديقة الكلّيّة.

حاولت التقاط أنفاسي التي ضاقت علي، إنها المرة الأولى التي أتحدث عن بغداد كمراسلٍ صحفي.. وهي المرة الأولى التي أشعر بها أنني مختلف عنهم أو.. غريب..!

obeikandl.com

هكذا كنت أحدث نفسي حتى أتاني صوتها تعتذر عن كثرة الأسئلة، وعدم مراعاة مشاعري..

كانت مختلفة عن فتيات الجامعة اللواتي قابلتهن، مختلفة في كل شيء..

صوتها الذي يجمع بين الحياء والجرأة في الحق، مشيتها الهادئة الرصينة وكأنها تكتب في سيرها خطوات المجد، حشمتها وجدّيتها، كل ذلك دفعني إلى أن أكتب لها اسماً سريّاً في عقلي، وأطلق عليها اسم.. زهرة الياسمين..

ابتسمت بكبرياء أمام اعتذارها وقلت لها وأنا أحدق في الفراغ:

- ما يزال الجرح طازجاً لَمّا يندمل بعد، بل إنه موغل في الاتساع يوماً بعد يوم..

ناولتني ورقة مكتوب عليها اسم موقع إلكتروني، وقالت بجدية:

- لقد أسسنا موقعاً لمساندة أهلنا في العراق ودعمهم بما نستطيع.. إن تسنى لك الوقت فيمكنك أن تطلع عليه وتزوره.. ويمكنك أن تكون عضواً فاعلاً معنا في خدمة هذه القضية، والأمر لن يكلفك إلا نصف ساعة ترتاح فيها من عناء المذاكرة في المنزل..

أخذته وأجبت معتذراً..:

- لكنني لا أمتلك جهاز حاسوب.. ربما سأدخل يوماً واحداً من مراكز الإنترنت القريبة.. شكراً لدعمكِ وتعاطفكِ..

بصدق وإيمان بالغين قالت:

- لا تشكرني، فأنتم كنتم وستظلون دائماً إخوة لنا.

رَحلت، ورحلتُ وكلماتها ترن في أذني، لتسكن تلك المشاعر الإنسانية قلبي..

" أنتم إخوة لنا.. "..

أيام قليلة مضت، سمحت لنفسي فيها بنزهة قصيرة عبر الإنترنت، كلما تبحرت فيه شعرت بأنه قد فاتني كثير من المعرفة، وضاعت مني أعمار فوق عمري لما كانت أحكام صدّام قيداً معرفياً كبيراً لنا، فحجرت اتساع آفاق عقولنا في حدود مرسومة، وضيّقت الخناق علينا فما عدنا نفكر إلا في أطر المتاح، وما أقله!.

بسرعة كتبت العنوان المسجل على الورقة، وفوجئت بخارطة العراق تتبدى بشموخ وتضيء بلون الفضة الساحر، تظللها نخلة كبيرة تميل عليها بشكل أخاذ..

obeikandl.com

كانت مجموعة من الأخبار معروضة للتصفح، منها أخبار متجددة من قلب الحدث، فتحتها دون تردد، وقد زودت بالصور، فانسرق قلبي يقرأ بشغف الخبر مذيلاً بتعليقات الأعضاء المنتسبين إلى الموقع..

لم أتمالك نفسي فقمت بالتسجيل على الفور باسم مستعار فضلت أن أنسبه إلى نفسي، فاخترت: طارق البغدادي، ليخبر عني..

وفي غضون دقائق بدأت الكتابة، مع كل ما لاح في ذهني عن بغداد..

تاريخها الحافل، حضارتها، صمود أهلها، مواطن الجمال فيها..

الكتابة وهبتني نعمة التجوال مجدداً في كل سوق وميدان، في كل حي وزقاق..

كتبت بكثير من حنين إليها، وأردت لصوتي أن يصل سريعاً.. ورحت أتردد بين حين وآخر على الموقع، لألمح تفاعلاً كبيراً، وبقيت محتفظاً بسري الخاص، فلم أبح به لأي أحد..

" لسنا بحاجة إلى نظراتكم المشفقة، ولا إلى عباراتكم المتعاطفة، نحتاج إلى دعمكم الصادق، وأن تهبونا القوة، أن تثقوا بأننا لن نستسلم، ولن نستكين

حتى تعود هذه البقعة الطاهرة محررة، وإن تضمخت بالدماء..

صمتكم بات يقتلنا، تماماً كما تقتلنا سهام العدو، وتخليكم عنا، نسيانكم لنا، ونحن في أمس الحاجة إلى دفء قلوبكم، إننا نموت كل لحظة، والعالم يرى ويسمع، ويصمت طويلاً.. كل ما نريده أن تبقوا معنا، كل شخص بما يستطيع، بالكلمة، أو بالمال، بالمساعدات الطبية، باستقبالكم للاجئين.. ".

تلك اللحظات التي كنت أقضيها في مقهى الإنترنت كانت جنتي وواحتي ومتنزهي المحاط بجدران الحزن الدافئة حتى حين..

obeikandl.com

الفصل السادس

كلما هممت بأن أتبعه أتاني شغل شاغل ألهاني عن ذلك، وأنا في خضم انهماكي بأعمالي البسيطة كنت أضحك ساخراً من نفسي، فعادةً الآباءُ هم فقط الذين يتبعون الأبناء خفية، ليراقبوا سلوكهم.

الأمر مقلوب الآن، ككل الموازين في الحياة، وهاجسي في أنه يخفي عنّا أمراً جللاً مازال يُلحُّ عليّ لاكتشافه.

عاش أبي وحيداً طيلة عمره، قد رزقه الله بأختين تزوجتا في سن صغيرة، وعاش لدى جدتي يتيم الأب، منكسر الجناح، فاهتمت به وربّته والتفتت إلى تعليمه، فكان من خيرة شباب بغداد، ومن النخبة المتميزة بين طلاب جامعته، لكن حيّز اليُتم ظلّ يحفر خندقاً في داخل صدره، يَخِزُه في لحظات الضعف وخزات مؤلمة، يشعره بشعور وحدة مضاعف، فيكابر على نفسه، ويلتزم الصمت حتى يتجاوز عقباته..

لما تزوج أمي كانت له الأم والحبيبة والأخت والصديقة، كلهن في آن معاً..

بذكائها فهمت شخصيّته، وأدركت كيفية التعامل معه، وبرفق احتوته، ومدّت يدها حانية إليه، تشاركه كدح الحياة، ولذّة الحلم بالمستقبل، وسعادة الحاضر المتألق بتعاونهما معاً.

لفتته بداية ثقافتها وتميزها أيام الجامعة، وجدّيتها وحسن تربيتها، فتقدم لها خاطباً، وكانت سعادته الحقيقية يوم ارتبط بها..

لم يكن جمالها فقط هو ما أسره، لقد ملكت قلبه بخصال قلما تجتمع معاً في أنثى.. وكم تمنيت لو يرزقني الله زوجة بروعة أمي بما تمتلكه من جمال وحسن التدين، عقل وحكمة ورأي حصيف..

أبي وأمي معاً شكلا ثنائياً متميزاً لطالما فخرت بانتمائي إليه..

لكن قسوة الظروف التي داهمتنا في الفترة الأخيرة، القلق الذي أنهكنا، واختفاء الأمن، كلها عوامل تعرية أكلت من قوته وكبريائه الشيء الكثير.

لاح الليل أخيراً باسطاً عتمته وهدوءه..

وكلما أطلّت ليلة حملت لي معها شريطاً مصغراً

لأحداث النهار، أطلع عليه بهدوء في العتمة، كمشاهد لفيلم سينمائي قصير لا يتجاوز الدقائق، وفي ذهني أضع خطوطاً حمراً على المهام المطلوبة للغد، والأعمال الناقصة، وتلك المنجزة التي تشعرني براحة الضمير والثقة الكبيرة بالنفس.

تلك الأمور التي كنت دائماً أحاول تلقينها لفؤاد وتعليمها له، لكنه كان يغفو دائماً ليتركني في النهاية أحادث نفسي..

وعدت أفكر في أبي..

لقد كان علي أن أحزم أمري، وأن أتخلى عن يوم دراسي من أجل أن أطمئن عليه..

أردت بشدة أن أقابل مدير عمله، وأخبره بأن يخفف عن والدي ضغط العمل، وأحببت لقاء زملائه هناك، فأوصيهم خفية به، وأحدثهم عنه، وعن مواقفه الرائعة التي عرفه الناس بها في بغداد، عن أعماله الخيرة، ومحبة الناس له..

أفكار وأشياء كثيرة أوحى لي بها الليل الطويل، ولما شق الفجر حدّة الظلمة، دقّت في صدري ساعة العمل، ونهضت وفي نيتي أن أحقق خطتي..

راقبته يتناول لقيمات قليلة من فطوره ويسرع خارجاً من المنزل، فالتهمت شطيرتي على عجل لأتبعه..

نادتني أمي فقد نسيت الكتب، فتظاهرت أنني لم أتنبه للأمر، وأسرعت خارجاً خلفه، نزل إلى الشارع يتلفت حوله، فاختفيت خلف بوابة المبنى الرئيسة، قطع الشارع نحو الضفة الأخرى، وهنا فكرت في أن أستقل وسيلة المواصلات التالية للتي سيستقلها.

لكنه لم يفعل أياً مما فكرت فيه، فمشى إلى أحد الأزقة المجاورة واختفى فيها.

أسرعت أعدو خلفه لعلي ألحق به، فأغضبت سائقي السيارات العابرة، وزاحمت المشاة، ومع ذلك أسرعت، لأجد نفسي أمام مفترق طرق، كل واحد منها يُفضي إلى اتجاه..

وقفت أفكر والحيرة تعتريني..

لِمَ ينحدر إلى هذه الأمكنة ولم يستقل الحافلة!

سريعاً إلى الهاتف العمومي، واتصلت بالعم عبد الله أسأله عن أحوال العمل..

لم أرد أن أشعره بأنني قد قررت إقامة حملة تفتيش على أحوال والدي، وبسذاجة سألت:

- ألم يصل والدي بعد؟ كنت أريد أن أسأله شيئاً..

لكنه بغرابة قال:

- هل تمازحني يا بني؟ فوالدك قد ترك العمل منذ

عشرة أيام، لقد استغنوا عن خدماته، ووعدته بالبحث معه عن عمل بديل، لكن الأمر كما تعلم صعب!

تداركت حرج الموقف وادعيت أنني أردت فقط الاطمئنان عليه باعتباره صديقاً لوالدي، وأقفلت السماعة لأفكر في تلك الصاعقة التي أرسلتها إلى قلبي أسلاك الهاتف.

شاحب الوجه عدت إلى المنزل..

ارتعبت أمي من منظري وسألتني إن كنت بخير..

- متعب قليلاً، صداع في رأسي، ومعدتي ليست على ما يرام..

اختفيت في الغرفة تحت الغطاء الثقيل أفكر فيما حصل..

إنها كارثة أن يترك والدي العمل، وأن يصبح عاطلاً يستجدي الناس من أجل وظيفة، من أجل تأمين لقمة عيش، وكارثة أيضاً أن يحتمل مصروف المنزل بلا مردود يناسبه..

طبول الحرب قرعت من جديد في رأسي، فتناولت حبتي دواء لأسكن هذا الألم المباغت، واستسلمت لفكرة الهروب من ذلك كله عبر نوم عميق.

الفصل السابع

هذا الصباح لم أكن مستعداً لأي شيء!

تلك الوجبة صعبة الهضم التي تناولتها بالأمس أصابتني بوعكة، وتزاحمت الأفكار في رأسي ترجو لها سبيلاً إلى الخلاص..

استيقظت على صوت فؤاد يغني بصوته الأجش أغنية شعبية، وهو يتأنق قبل ذهابه إلى المدرسة، فقد اكتشف أن هناك مدرسة للفتيات قريبة من مدرسته، مما شجعه كثيراً على الحضور متأنقاً كل يوم، دون أن يتأخر لحظة عن جرس بدء الدوام..

ونبهني صوت حركة أمي في المطبخ وهي تعد الفطور، نهضت لأتذكر أن أمامي مهمة صعبة، وبسرعة انهمرت تساؤلات كثيرة في داخلي عن الخطوة التالية..

أبي في مأزق، إنه - ولا شك - يقضي النهار بحثاً عن عمل، ملامحه المتغيرة، وطباعه..

كلها سمات تدل على أنه ليس بخير..

obeikandl.com

لقد كان يخدعنا برفق ومحبة، يوهمنا أن عمله على خير ما يرام، من أجل أن نعيش حياتنا بلا قلق، فضّل والدي أن يحتمل ذلك كله دفعة واحدة، دون أن يشركنا في همه..

نهضت أمسح أثر النوم عن وجهي، ورحت أفكر في قرار سريع أتخذه..

هل أصارحه بالأمر؟ سينزعج إذا عرف أنني اتصلت بصديقه، سيقول إنني أتجسس عليه!

هل أبحث له عن عمل؟

سألت نفسي، ووبختها..

- ما أغباني! وهل العمل متوافر في هذه العاصمة الضخمة بسهولة؟ وأي عمل قد يناسب والدي؟

حاولتُ التخلص من كل الأفكار العبقرية التي هطلت لحظتها دون توقف، وقررت اليوم أن أتبعه أيضاً حيث يذهب، أن ألاحقه فأقف إلى جواره في محنته، قررت أن أخبره بأن تعبه لم يذهب سدى، وبأنني الآن رجل يُعتمد عليه..

قلت لنفسي واثقاً..:

- أجل.. هذا هو القرار الصائب..

واستعددت لتناول الفطور معه، لكنه لم يستطع تناول

obeikandl.com

لقمة واحدة، قال إنه يشعر بقليل من الدوار وضيق في التنفس..

هممت بأن أخرج لإحضار الطبيب، فحالته كانت مقلقة، لكنه استوقفني وأصر أن أذهب إلى جامعتي إذ إنه بخير..

خرج متثاقلاً، وعينا أمي تتبعانه بريبة..

نظرت إليها مطمئناً بأنني سأرافقه..

خرجت معه وأمسكت ذراعه ملحاً على مرافقته، لكنه أبى، وبجسارة أصر أن يذهب وحده..

تركته يسبقني ووقفت أنظر إليه من بعيد، قلبي يخفق عليه بشدة، يكاد الألم يعتصرني لما يعانيه من تعب..

كما الأمس عبر الشارع الرئيسي، واتجه إلى زقاق قريب، بخطوات منهكة، وهذه المرة كان الشارع خالياً فاستطعت العبور خلفه..

سلك نهاية أحد الأزقة وانحرف يمشي داخله، وبهدوء تبعته..

طرق أحد الأبواب، فظهر رجل غريب المنظر، سمين يرتدي بنطالاً أسود فضفاضاً، وقميصاً أبيض بأقلام حمراء، وسترة زرقاء بلا أكمام تبدو قديمة، ويعتمر قبعة بنيّة اللون ذات نقوش ذهبية بشعة..

obeikandl.com

رحب الرجل بوالدي وكأنه صديق قديم له، وبدا وكأنه خارج معه..

من خلف جدار قديم، جرّ الرجل عربة قديمة بالية، تحتوي بعض الخردوات، وألعاباً رخيصة للأطفال، وعدّة خياطة، ومشابك شعر للفتيات..

ظننته في البداية أحد معارف أبي القدامى، ووقعت في نفسي ريبة منه، ولكن أسقط في يدي عندما رأيت أبي يحمل حقيبة غريبة، ويسير قربه..

الرجل والعربة، الحقيبة الغريبة وأبي، كلها ألغاز حُشرت في رأسي دفعة واحدة، فصبرت إذ إنني أيقنت أن المسألة لن تعدو أن تكون مسألة وقت حتى أكتشف الحقيقة.

سارا ببطء يقطعان الشوارع باتجاه سوق شعبي قريب، وهناك قريباً من سور حديقة صغيرة توقفا، وبدأ الرجل الغريب ينادي على بضاعته، يحجب بحجمه وعربته أبي، فلا يلوح لي إلا جزء منه..

كان الفضول يقتلني فلم أستطع الصبر أكثر، اقتربت ببطء لتلجمني المفاجأة..

إنه صوت أبي، ضعيفاً متعباً..

ليته لم يكن هو، ليته ضاع في الأزقة كما الأمس

فلم أره على هذه الحال، بل ليت سيارة عبرت فوقي وأنا ألاحقه، فمت قبل أن أراه على هذه الحال..

لقد كانت الحقيبة ملأى بالعطور والساعات المعدة للبيع..

أبي الذي عاش أكثر من خمسين عاماً في عزّة وشموخ، وكان له مكتب فخم في أرقى ضواحي بغداد، وكان لديه موظفون، يأمرهم وينهاهم، سيّد هو في عمله، وسيد في بيته، يأكل الطيب من الطعام، ويرتدي الأنيق من الثياب، ولا يتجاوز عتبة المنزل إلا وهو متأكد أن حذاءه يلمع، هاهو الآن أمامي مقوس الظهر، منكس الرأس، منهكاً يعاني قسوة الحياة..

اقتربت أكثر.. تمنيت أن أحتضنه في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى..

عبرتي سبقتني، وبألم كبير ناديته..:

- أبي.. لماذا لم تخبرني؟!

نظر إلي متفاجئاً وقد أعيته الصدمة، فلم ينبس بحرف، لكن ملامح وجهه تقلصت، وتجمدت دموع في عينيه أبى عليه كبرياؤه أن يطلقها. وهويتُ إلى يده أقبلها، وإلى رأسه المُندّى بالعرق، أمسحه عنه بمنديلي، ودموعي تسابقني..

- سامحك الله، أتشقى في الحياة ولديك في البيت

رجال يتسكعون؟ تباً للمدرسة والجامعة، ونحن نسلكهما في ترف وأنت تلقى العناء..

تمالك نفسه، ولم يسمح لها بأن تتراخى أو تتعاطف في موقف ضعف كهذا، فتابع ترتيب بضاعته، وهو يقول بصوت متقطع:

- العمل الشريف ليس عيباً يا بني، سأظل أعمل هنا حتى تتيسر لي وظيفة أخرى، وستبقى وفؤاد تدرسان، سأستريح من كل ذلك قريباً فلا تخف علي..

كانت عيناه زائغتين، ونفسه متقطعاً مما أرعبني..

طلبت أن يجلس فوراً على الكرسي فأذعن، وأعطاني الرجل بعض الماء لأسقيه، وأمسح به وجهه ورأسه..

دقائق مرت وقلبي ينقبض معها أكثر، نطق بصعوبة وأخبرني أنه يعاني ألماً شديداً في صدره، قالها عنوة:

-أحضروا الإسعاف... إنني متعب جداً...ولم يكمل جملته حتى تهاوى أمام عينيّ فاقداً وعيه.

obeikandl.com

الفصل الثامن

السّعادة.. يا أيها الحلم البعيد المهاجر عن عالمي، ابقي قريبة، فكم افتقدتُ وجودك..

يسودُّ العالم في وجهي لحظة غيابك، ترتدي الدنيا ثوبها الرمادي، تسافر الشمس إلى غير رجعة، ويشيح القمر بنور وجهه عني كيلا أراه وقد حجبت الشمس عنه، ويخبو وميض النجوم، تعتذر عن لقائي، وتترك الأفراح ورقة استقالتها على ناصية قلبي..

ربما اشتهيت الفرح يوماً، ربما راودني كثيراً في حلمي..

تمنيت أن نحياه كباقي الناس، ولم أتجاوز حدودي في أمنياتي، ولم أطمع!

كانت كلها بسيطة جداً لحد التواضع، كأحلام البائسين، كأمنيات متشردٍ بسقف خيمة باردة يظلّه في يوم حارق، أو أمنية فقير بائس بكسرة خبز تسد رمقه.

أردت أن نحيا بسلام، أسرة متآلفة، تخليت عن فكرة الحلم على أرض الوطن، وانسحبت بأحلامي إلى

حيث رحلت، لكن بدا لي أنني أسرفت فيما تمنيت، فنكّست رأسي وأحزاني تحوم فوقه كخفافيش في الظلمة..

أصيب أبي بنوبة قلبية مفاجئة، هكذا دون سابق شكوى أو إنذار، تهاوى الجبل الثابت، وتحولت صخوره القاسية إلى حصيّات تدحرجت لتستقر في أسفل الهاوية.

حمله المسعفون وقلبي يتأرجح معهم على تلك النقّالة، وأسرعت به سيارة الإسعاف تشق الشوارع إلى أقرب مشفى..

تمنيت لو تصيبني أنا الآخر نوبة قلبية فلا أراه في تلك الحالة المؤسفة.

أدخلوه إلى قسم الطوارئ ثم أتت إحدى الممرضات تصطحبني إلى قسم الحسابات برفقة طبيب اطلع سريعاً على حالته..

- لديه شريان مسدود بشكل كلي، ويلزمه عملية على الفور.

صرخت بفزع:

- وماذا تنتظرون؟!

التفت إلي متصنعاً حرجاً لا يجيد تصنعه، وقال:

- عليك أن تدفع مبلغاً أولياً كي توافق إدارة المشفى على إجراء العملية..

أجبت وقد تحول داخلي إلى جمرة ملتهبة:

- سأؤمن المبلغ الليلة أو غداً على الأكثر..

ابتسم ونظر إلي وكأنه يزدري فقيراً واقفاً ببابه يسأله صدقة..

- أعذرني ولكن عليك أن تدفع المبلغ حالاً أو تنقله فوراً إلى مشفى آخر، وأحذرك فهذا خطر عليه جداً..

تمنيت لو أتيح لي أن أنقله إلى مشفى آخر كي أبعده عن هذه الشركة التي علقت على بنائها خطأ شاخصة تفيد بأنها مشفى، ولكن ما باليد حيلة!

كان علي أن أتصرف بسرعة، فحياة والدي على المحك، وخطر ببالي على الفور العم عبد الله، فباشرت الاتصال به ليأتي على الفور ويدفع ثمن إنقاذ أبي، في مكان شعاره الإنسانية، وحياة الناس قبل كل شيء!

وقع الخبر كان شديداً على أمي، لم أعرف كيف أبدأ وإلى أين أنتهي وأنا أخبرها بما حدث..

صغتُ بعض الأكاذيب عن لحظة سقوطه، وحذفت مقطع البائع المتجول، أردت أن تبقى صورته في عينيها كما أراد أبي تماماً، وابتلعت السرّ بغصّة شاكت حلقي وقلبي في آن معاً..

بقي صهيب عند إحدى الجارات، وأسرعنا نحن الثلاثة فؤاد وأمي وأنا إلى المشفى..

بقينا طويلاً أمام غرفة العمليات، لم أحدق في ساعتي، ولم أحدث نفسي أيكون الوقت ليلاً أم نهاراً، فلم يعد يهم، مادام أبي ليس معي..

كانت أمي تلهج بالدعاء ودمعها يغسل وجهها حزناً، وتارة تمسك بمصحفها الصغير وتقرأ ما تيسر لها من القرآن، وكنت كشخص مغيّب عن الوعي، أتصرف بشكل آلي، تلاشت في لحظة كل المشاعر والأحاسيس، فقدت الدمع والخوف، وانسكبت بقايا روحي لتواسي فؤاد الذي كان ينتحب بأسى ومرارة لفتت أنظار العابرين هناك، فاستحلفته بالله أن يجلس ويشغل نفسه بالدعاء..

خرج العم عبد الله من قسم الحسابات، واقترب يطمئن على حالة أبي، وهمس لي بأنه يريدني على انفراد، فانسحبنا بهدوء إلى خارج المبنى..

- لقد سددت الدفعة الأولى يا بني، ويعلم الله كيف

تدبرتها ومن أين استدنت نصف المبلغ، ولا بأس، فكله فداء لصديقي وأخي أبي طارق..

- هذا معروف وفضل لن أنساه أبداً في حياتي، وأعدك بسداد الدين قريباً..

أشار إليَّ بالصمت وتابع..

- المشفى سيطلب منك غداً دفعة أخرى وما سيطلبه مبلغ ضخم، لذلك أنصحك بأن تستغل الوقت وتحاول تدبر أمر النقود، بأسرع ما يمكنك..

لا وقت للعاطفة، لا متسع للبكاء، ولا مزيد من التفكير في المستقبل..!

حياة أبي على المحك وعلي أن أتصرّف..

خرج الطبيب منهكاً من غرفة العمليات، وأخبرنا بأن العملية قد نجحت وسينقل أبي للعناية المشددة بعد دقائق..

مُنعنا من الدخول عليه أو رؤيته، لكننا على الأقل اطمأننا أنه سيكون بخير..

عانقت أمي وأخي طويلاً، وحمدنا الله على سلامته..

وقبل أن يغادر العم عبد الله، وضع يده على كتفي وقال:

obeikandl.com

- لا تنس ما أوصيتك به، السرعة هي الأهم، والمشافي الخاصة لا ترحم..

أسرعت أمي إلي، وبدا أنها فهمت المشكلة، ناولتني مفتاح الشقة وقالت:

- هناك في خزانة والدك، على الرف العلوي ستجد حقيبة زرقاء صغيرة، افتح الجيب الأمامي منها، وخذ كل النقود التي ستجدها، إنها ثروتنا في الحياة، وإن وجدتها لا تكفي افتح خزانتي، ستجد في جيب معطفي الأبيض بعض الحلي الذهبية، خذها وبعها جميعها وعد سريعاً، ولا تنس تفقد صهيب وأحواله عند الجارة.

انطلقت سريعاً إلى هناك، نظرت في المبلغ الذي اعتبرته أمي ثروة العائلة وما تبقى لها، كان لا يعدل ثلث المبلغ المطلوب، وأسرعت إلى خزانة أمي لأحمل ذكرياتها التي كانت تعدّها لنا بين حين وحين..

الخاتم الأول هدية خالي عندما أنجبت أخي صهيب، والثاني خاتم الزواج، اختاره والديّ معاً وهو عزيز جداً على قلب أمي، والثالث اشترته أمي من أول مرتب حصلت عليه فقيمته في أهميته، والطوق والسواران من هدايا الزفاف، أما بقية ما كانت تمتلكه من ذهب وحلي فقد باعته وسط الأزمة، رغم رفض والدي وإلحاحه الشديد..

كان الوقت ليلاً، والصاغة قد أغلقوا أبوابهم، ففضلت العودة إلى المشفى، لأرسل أمي وفؤاد إلى الشقة رغماً عنهما، ونسيت تفقد حال صهيب تماماً.. وبقيت مرابطاً قرب أبي..

obeikandl.com

الفصل التاسع

ساعات الليل مرّت ثقيلة، شديدة على نفسي، حاولت فيها أن أسترخي على مقعد أسود بارد في الممر المؤدي إلى حيث أبي..

رأسي كان مليئاً بالأفكار، والمواقف المشوشة، إلى حد منعني التركيز في كل ما حصل..

كنت منهكاً إلى حد كبير، فقد مرَّ يومان وأنا واقف في وجه العاصفة، تمنيت لو حصلت على سرير لأنعم بإغفاءة واحدة فقط تساعدني على الصمود، لكنني قنعت بالكرسي الأسود البارد، وأغمضت عيني لترتاحا من الجهد، وأنا أحذر نفسي من النوم لحظة، فقد يحصل أي شيء يستدعي حضوري، يجب أن أبقى متيقظاً دائماً..

يجب أن أسرع مع طلوع النهار لأبيع مصاغ والدتي، وأن أعود قبل أن يزعج أحد والديّ بكلمة، أو حتى بنظرة لا تليق..

وصايا كثيرة كنت ألقيها على نفسي وأنا مغمض العينين، وكأني أشاهد حلماً مقيتاً..

شعرت بحركة غريبة قربي، فتحت عيني لأجد فؤاد واقفاً أمامي..

ظننتني لوهلة أحلم، لكنه كان هو حقيقة..

هببت واقفاً وسألته:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

كان متوتراً قلقاً، سحبني من ذراعي وقال لي وهو يعدو باتجاه الخارج:

- أمي هنا، لقد أصيب صهيب بوعكة شديدة في أثناء غيابنا، فأحضرته وأمي إلى قسم الطوارئ..

ركضنا معاً إلى هناك، ودفعت الثمن مقدماً لهم قبل أن يلقوا على مسامعي القوانين الإنسانية في التعامل مع نقود المرضى، واختفى صهيب ليتلقى علاجه.. وعيناي ترقبانه يغادر معهم وقواه خائرة تماماً، وصوت أنينه يتردد في قلبي، يحفر فيه وجعاً، كقطرة ماء تدق صخرة، حتى تفلقها إلى قسمين..

قلبي يكاد ينشطر أيضاً إلى نصفين..

نصف في الأعلى واقف أمام نافذة ضيقة تطل على أبي، وهو في العناية المشددة، تحوطه أجهزة كثيرة،

obeikandl.com

ويخفي وجهه جهاز الأوكسجين، فلا يتاح لي أن ألمح وجهه الذي اعتدت أن أراه كل يوم، وكل ليلة، لأدرك أن العالم مازال بخير، ولا يسمح لي أن أمسك يده، فأعلمه أنني قربه، أقف إلى جواره، أسانده بكل ما أملك، ولا أستطيع حتى محادثته بصوتٍ خافت، لأقرأ على مسمعه بعض الآيات، أو صفحة من كتاب يحب أن يسمعني أقرأ فيه..

أقف كفارس دون سلاح، خلف الزجاج، أتشظى، وألملم نفسي من جديد، أتهاوى، لأصر على الوقوف متجلداً..

أهذه ضريبة الابن البكر يا والدي الحبيب؟

ليتني كنت مثل فؤاد، أجلس في زاوية ميتة، وأنتحب، لألتمس حضناً يحتويني، أو غائباً عن فهم حقيقة ما يجري مثل صهيب، ولعل آلام الحمى هي أشد وطأة من آلام الروح..

وهنا.. نصف قلبي الثاني، قرب صهيب الغائب بين أيدي الأطباء، يحاولون إنقاذه..

قالت أمي وهي تكفكف دمعها..:

- لم يكن يعاني من سوء هذا الصباح، كل شيء كان على ما يرام، لكنه لم يلعب قط، ولم يبتسم، فكأنه كان يشعر بوالده أكثر مما شعرنا نحن..

ربّاه.. رحماك بنا..

لم أجب بكلمة واحدة، والتزمت الصمت..

كنت خائفاً من المستقبل أن يحمل معه مزيداً من الندوب على صفحة أيامنا..

حملنا أمتعتنا وابتعدنا عن أرض الخطر؛ بغداد الحبيبة، ظننا أننا هنا في مأمن، وسنحيا حياة هانئة، كم كنا أغبياء عندما فكرنا أن الخطر لن يأتي إلا عبر رشاش أو بندقية، وكم سهونا عن حقيقة الأمر ومرارته..

فالأسلحة مسلطة حولنا من كل ناحية، تغتال أفراحنا بقسوة، ونحن واقفون بصمت، في ردهة مشفى كئيب، ننتظر بملامح يأس بزوغ بشائر الفرج..

زارنا الفجر أخيراً محملاً بالبشائر، فقد انخفضت حرارة صهيب، وغدا في حالة مقبولة نوعاً ما عن التي كان عليها بالأمس، وسمح لنا بالدخول إلى أبي، لمدة قصيرة جداً، وطلب أن ندخل منفردين..

وكنت آخر الداخلين إليه، أقدم رجلاً وأؤخر الثانية، وفي رأسي تدور تساؤلات ملحّة عما يمكنني أن أفعله في الدقائق الخمس التي سُمح لي بها قربه..

لا أذكر بالضبط ماذا قلت، وكم من الدمع نزفت، لكنني حدثته أننا بخير جميعاً، وبأننا ننتظر عودته لنا سالماً، حدثته عن ذكريات قديمة يحبها، وعن المستقبل الواعد الذي ينتظرنا، وأذكر أنني رددت كثيراً على مسمعه كم أحبه وأحترمه، وكم تعلمت منه في الآونة الأخيرة..

نادتني الممرضة للانصراف، أمسكت يد أبي الحبيب لأشعره أنني هنا قريباً منه، ولأن حنيناً طاغياً دفعني إلى تحسس تلك اليد الكريمة التي وهبتني فوق ما يمكنني تقديره، وهممت بالانصراف.. وإذا به يضغط على يدي برقة، فكأنما أراد أن يرسل إليَّ رسالة قصيرة بأنه يصغي إلي كما كان دائماً، وبأنه أيضاً يحبني..

في الخارج كان ينتظرني موظف الحسابات ليصعقني بالرقم الخيالي الذي يطلب مني أن أدفعه لقاء حياة والدي وأخي..

طيلة عمري كنت مسالماً، لم أفكر قط في الشجار مع أحد، ودائماً كنت أفتش عن الحلول السلمية في المشكلات التي تعترضني، بالطبع خلا مشكلة الحرب!

لكنني اليوم تمنيت أن أضرب هذا المتأنق الواقف أمامي ببرود..

فلو أنني قد أتيت بوالدي عبر طائرة مروحية (هيلوكبتر)، وجعلتها تحط على سطح فندق خمس نجوم، ووظفت طاقماً من الممرضين لما كلّف هذا المبلغ!

عرفت أنه قد حان الوقت لأن أقوم بما لا أحب فعله، فتمالكت غضبي ومضيت لبيع الذهب، عددتُ النقود ثلاث مرات، وتأكدت بأنها لن تكفي..

تاهت نظراتي حائرة في الشوارع المزدحمة، والناس العابرين، واختلطت أصواتهم في أذني بضجيج مزعج، وتنقلت بين المباني المتقاربة، والمحلات المتناثرة، والباعة الجوالين..

كنت كمن يفتش عن فكرة هربت واختفت، مما أوجب القبض عليها.. ولكن دون جدوى..

أخذت أفكر في الناس الذين أعرفهم، وبإمكانهم تقديم المساعدة لي، كانت القائمة شبه فارغة، فمعرفتي بالناس هنا سطحية ورسمية في آن معاً.

ودون إدراك مني لما أفعل توجهت إلى المكتبة، إلى الأستاذ سليم..

لا أدري هل كنت غبياً إلى حد أن أطلب استدانة مبلغ كبير من شخص لم ألتقِ به إلا مرات ثلاثاً على الأرجح؟

بأي وقاحة أطرق بابه وأطلب مالاً؟

توبيخي لنفسي لم يمنعني من الدخول، كنت متعباً إلى درجة جعلتني أجرؤ على الدخول لأستريح فقط، أو أشرب كوب ماء لأفكر على الأقل بشكل صحيح..

كان جالساً بهدوء يقرأ كتاب الله بصوتٍ لا يكاد يكون مسموعاً..

رفع نظره إلي، وهم ليستقبلني بحفاوة كالعادة، لكنه سألني بقلق:

- وجهك شاحب جداً، وهناك هالات سود تحت عينيك، ماذا حل بك أيها الشاب؟ هل تعاني المرض؟

بصوتي المبحوح تعباً أجبت وأنا أجلس على الكرسي الأول الذي قابلني..:

- كوب ماء من فضلك..

توقف لحظة يحدق في برعب، ولم أدر السبب، فلم يتسنَّ لي وقت لأن أنظر في المرآة، لكنه أسعفني بكوب ماء تلقيته كأغلى ما يمكن أن أتلقاه في تلك اللحظة..

جلس هو مقابلاً لي، وسألني واستحلفني أن أفصح له عما حدث..

- القصّة طويلة وحزينة، ولا أود إزعاجك، جئت طلباً للمساعدة..

حكيت له الحكاية باختصار، وما آل إليه حال أبي، وكان ينصت بصمتٍ لكن عيناه تنطقان أسفاً..

- كم المبلغ المتبقي؟

- كثير جداً!

- أجبني بلغة الأرقام يا فتى..

نكست رأسي كمذنب ارتكب جرماً وحان وقت قصاصه، وأعلمته بالمبلغ..

وقف يفكر لحظة، فيما قررت الانسحاب بلباقة..

- سأتدبر أمري سيدي، ثمة بعض المعارف سأتصل بهم الآن.. أراك على خير..

استوقفني بلهجة آمرة..:

- انتظر خذ نقودك..

وأخرج من أحد الأدراج نقوداً وبدأ يعدها، ولكن بدا أن المبلغ لا يكفي، أجرى اتصالات سريعة بالمنزل وببعض التجار..

- صديق لي مقرب يعاني أزمة صحيّة، وأحتاج إلى مبلغ من المال ليبقى في المشفى..

وفي نصف ساعة كانت النقود المطلوبة كاملة على طاولته..

obeikandl.com

اختفت عبارات الشكر على لساني، فقد عجزت عنها..

وقفت غير مصدق لما حصل، هل الخير مازال موجوداً في هذا الزمان؟! أيعقل أن هذا الرجل يعيش معنا في عصر واحد؟!..

لمعت دمعة في عيني، وهمست له بصدق..:

- عاجز أنا عن الشكر..! سأعمل ليل نهار لأوفيك حقك..

أجابني وكأنه لم يصنع شيئاً يستحق..:

- لا تشكرني واذهب وكن قرب والدتك، ولا تفكر في المبلغ، سدده وقتما استطعت..

خرجت من المكتبة وقد تحول قلبي إلى يمامة بيضاء صغيرة ساكنة، حلقت في سماء دمشق، تشكر الله على ما وهب.. وانطلقت إلى المشفى، أحمل البشائر لأمي..

صعدت الدرجات هذه المرة كصقر حقيقي، وتلاشت كل علائم التعب التي كنت أعانيها، ولكن الوجوه لم توح لي بالخير، فاقتربتُ.. واضطربت خطواتي..

الفصل العاشر

هنالك توتر في الغرفة، جلست أمي على أحد المقاعد تبكي بحرقة فما عادت قدماها تحملانها، فيما التصق بها فؤاد لائذاً بحنانها من ضباع الخوف التي ألفت هذا المكان، وراحت تحوم فيه منتظرة التهام فريستها..

اقتربت كفرخ صغير أستجدي كلمة تطمئنني..

- والدك في حالة خطرة..

وقفت مذعوراً، وربما معترضاً على أفكار رتبتها ونسقتها في داخلي أن كل شيء على ما يرام، وهاهي الأمور تجري على غير ما كنت أحسبه، ولم أكن مهيأ لأي خبر قد يحطم أبراج أحلامي العالية..

خرج الطبيب بعد طول انتظار، وقال كمن يسرد حدثاً عادياً في نشرة أخبار..:

- للأسف.. لقد مات..

في تلك اللحظة تعطلت كل مداركي، ركضت إلى

الغرفة التي يقطن فيها والدي، رأيته مغطى بالبياض، كشفت الغطاء عنه لأرى وجهه للمرة الأخيرة، كان هادئاً مستكيناً كمسافر استراح في وطنه الحقيقي..

لم أصدق أنه قد مات حقاً..

ولا أذكر أنني رأيت شيئاً بعدما نظرت إليه، وما عدت أيضاً أسمع أي شيء، وتلاشى مني الشعور بالمكان والزمان..

كل ما أذكره أنني استيقظت بعدها لأجدني على السرير، في شقتنا.. خائر القوى، كلما حاولت النهوض شعرت بأنني مسمار تجذبه قطعة مغناطيس كبيرة فتمنعه من الحراك..

وكان البيت ساكناً جداً، وكأن الموت يقبع فيه، وظننتني لوهلة قد نمت كثيراً، فراودني كابوس مخيف، كتلك الأحلام المزعجة التي تزور أخي فؤاد فتقلقه، حتى رأيت الطبيب يدخل، يتفحص نظري، ويقيس ضغط دمي، ويسمع دقات قلبي الذي لم أكن متأكداً أنه باق في مكانه إلى تلك الساعة..

التفت إلى أمي وقال لها:

- اطمئني سيدتي.. ها قد أفاق أخيراً.. إنه بخير..

لكن أمي ظلت تبكي..

انصرف الطبيب، وظلت قربي.. بمرارة تبكي..

مسحت شعري بيدها وهي تتأملني..

كانت عيناها غائرتين وسط شلال من الدمع، وراحت تواسي نفسها بعودتي..:

- حمداً لله أنك بخير يا حبيبي..

ظللت شاكاً في أمر الحلم والحقيقة، وأردت التأكد من هواجسي، فقلت لها:

- أبي.. أين هو؟

لم تستطع أن تجيب عن تساؤلي، فاختفت عن ناظري لأسمع صوت شهقاتها المتألمة في الخارج، وليدخل فؤاد إلي يتفحصني..

اقترب مني كرجل ناضج وقال لي:

- لقد مات والدنا يا طارق، وقد كنت هناك في المشفى، ألا تذكر؟

- أذكر أنني رأيت الطبيب يومها يخرج من الغرفة، وبأنني رأيت أبي وكأنه يبتسم، لكنني لا أذكر ما حدث بعد ذلك..

- ألا تذكر ما فعلت؟

- ظننته كابوساً مرعباً.. وماذا فعلتُ؟

obeikandl.com

- ظللت تصرخ في غرفة أبي، فأسرع إليك الطبيب ليهدئ من روعك، فضربته بقبضتك، وتابعت الصراخ، ثم ذويت على الأرض وبعدها غبت عن الوعي..

قال لنا الطبيب إنك قد تعرضت لضغط نفسي وجسدي كبير، وإنك تحتاج إلى الراحة.. وكنت تقوم بين وقت وآخر تتناول الدواء من يدي أمي وتعود للنوم من جديد..

- وكم لي على هذه الحال؟

- ثلاثة أيام..

نهضت بسرعة فعاودني الدوار، فجلست والذهول يتملكني..

- ثلاثة أيام وأنا هنا، ووالدي بعيد عنا؟

كيف سأحتمل الحياة من بعدك يا أبتِ..

بكيت وشاركني فؤاد البكاء بحرقة..

لقد رحل دون أن أودعه، دون أن أشيع جنازته، مضى ولم أقبل جبينه..!

لقد قال لي يوماً إن العظماء يرحلون بصمت..

وقد لا يشعر أحد برحيلهم، لكنهم يغادرون وهم يصنعون شيئاً عظيماً يخدمون به قضاياهم..

obeikandl.com

رحل أبي متوجاً بكبرياء الكفاح، كذاك الذي يرحل به الجندي وهو يدافع عن وطنه، حبّات عرقه لم تجف، لم تتلاشَ.. بل انسكبت في أرضنا لتنبت خيراً.. وكل ما لقننا إياه من مبادئ، وكل ما تعلمناه منه من أخلاق، سيبقى محفوراً في صدورنا..

ظل موت أبي حسرة في قلبي حتى زمن طويل، وأظنه سيبقى إلى الأبد..

زارني بعض الزملاء يواسون ويعزّون، وزارني الأستاذ سليم لما عرف بما حصل من أهل الحي، ولم يتركنا يوماً العم عبد الله، فقد كان يقطع المسافات الطويلة بين بيته وبيتنا ليطمئن على أحوالنا..

حتى استعدت عافيتي، وطمأنته إلى أن بوسعي الاهتمام بأسرتي، إذ إنني قد أصبحت الآن رجلها وعائلها..

وعاد فؤاد إلى صفوف الدراسة حزيناً منكسراً قد طوقه اليتم، ورسم في طريقه هالة حزن، حاولت جاهداً أن أبعدها عنه، دون جدوى.. فقد كانت ترافقه أينما سار.. غير أنه أخبرنا بقراره الامتناع عن التدخين؛ لأن والدي لم يكن يطيقه، ووعدنا بأنه سيبذل

obeikandl.com

ما بوسعه ليحقق ما تمناه منه في حياته، لعله يرتاح بعد مماته..

هذه الفكرة التي اقتنع بها فؤاد كانت أجمل مواساة لنا في تلك الأيام.

لا أستطيع تخيل فكرة انجرافه مجدداً، وما عادت لدي قدرة على متابعة أحد.. وما أشد ما استبشرتُ بسلوكه خيراً..

أما صهيب فنظراته الحائرة المنتظرة لقدوم أبي كانت تقتلني كل يوم، وهو يحدق في ذلك الكرسي الفارغ على المائدة، وفي نصف الأريكة الذي ظل خالياً بعد غيابه، لم يجرؤ أحد أن يحتله..

وطوت أمي حزنها في قلبها وتجلدت، لتخبرنا بأننا لسنا وحدنا، وبأنها منذ الآن مجندة لإسعادنا..

كانت تردد دائماً على مسمعي بأننا أسرة واحدة، سنتحد لمقاومة أقسى الظروف، وسنتجاوزها، كما لو كان والدي حياً.

obeikandi.com

الفصل الحادي عشر

وكما تعودُ الطيور إلى أوكارها، عدتُ إلى رحاب الجامعة، عدتُ إلى حبيبتي الدمشقيّة الأولى، تلك الحسناء التي أحبتني لشخصي، وقبلتني في صفوف طلابها، عاملتني كواحد من أبنائها، وقدّرت قيمة عقلي، فوعدتني بتخرج محفوف بالتميز قريب..

عدت لأصغي إلى صخب الطلاب وهم يأخذون أماكنهم على مدرجاتها، ولأتأمل ملامح الغضب والرضا على وجوه دكاترتها وأساتذتها الرائعين، عدت لأقرأ قصيدة صامتة، أبكي بها على أطلال حضوري..

هنا كنت أوجد معظم النهار، فوق هذه البقعة من العشب الأخضر، وهناك قاعاتي، وهذه الطريق تؤدي إلى المدرج الرئيسي..

هؤلاء زملائي الذين لم يكتب لي أن أعرفهم جيداً، ولم يتسع لهم الوقت أيضاً ليعرفوني أكثر..

تلك هي زهرة الياسمين.. الفتاة غريبة الأطوار من السنة الأولى التي سألتني باهتمام عن أحوال العراق،

مازالت تدرس هناك تحت الشجرة لم تغير مكانها المعتاد.. ليتها تسأل عن أحوالي الآن لأخبرها أنني لاجئ بجدارة، سقف بيتي كخيمة مهلهلة قد تقتلعها رياح الشتاء، والمطر فيه صاخب لا يتوقف.. غزيراً من محجر أمي، أخي الصغير من ذوي الاحتياجات الخاصّة، وأنا من ذوي الاحتياجات العامة.. طعام وملبس ومسكن.. كلها ستتلاشى قريباً من حياة إخوتي، وأنا سجين بريء، لكنه عُذب بشدّة، في سجن خارجي، قد لا يشبه أبو غريب، وقد لا يختلف عنه أيضاً، أنا جندي مكسورٌ سيفه، قد أتى من مسقط رأس صلاح الدين الأيوبي، ليستقر به المقام قرب مدفنه..

أنا الذي أحصيت خطواتي من بغداد إلى الشام فرأيت في كل خطوة دعوة إلى الحياة، ودعوة إلى الموت أيضاً..

أنا صوت المهاجرين عنوة، اللاجئين من دمار الوطن إلى دمار النفوس، قد أتيت أعلن استقالة صامتة من كوني طالباً هنا، وانضممت إلى فئة الكادحين..

إنه اللقاء الأخير، فلتبكِ يا عين، ولتتألم يا قلب!

ودّعت الجامعة، وعرجت للمرة الأخيرة على مقهى الإنترنت.. كتبت اسمي: طارق البغدادي

كلمة السر: بغداد..

واستجمعت أفكاري لأترك قبل رحيلي رسالة وداع..

"ذات يوم سقطت بغداد، أسقطتها ظروفٌ شتى..

حكم ظالم، وأيدٍ خائنة، أطماع ثائرة، وشعب أصغى لوسوسة الطائفية، فعمّت الفوضى، وراحوا يقتل بعضهم بعضاً..

سقطت بغداد لكنها لم ترحل، وإن كان الجميع قد رحلوا عنها أو سيرحلون.. لتبقى وحيدة..

رحل صدام لأن صلابته حطمت كبرياءها، ورحل جنوده لأنهم عبروا طريق النهاية.. نهاية الاستبداد..

ورحلنا نحن.. لأن بغداد لم تعد بغداد التي عرفناها..

لقد أصبحت دائرة من العنف والخوف..

ولا تظنوا أنني أقصد بالخوف خوفَ الشعب من المحتل.. بل إنه خوف المحتل الذي قاده إلى هنا..

محاصرون هم برعبهم، قد أتى بهم من بعيد ليحاربوه، هذا العدو الهلامي.. تارة يسمونه إرهاباً، وتارة يطلقونه جزافاً على كل مسلم، وتارة أخرى

يتحول إلى تهمة، يلصقونها بمن لا يستجدي رضاهم، وتسقط الشعوب دوماً ضحية جنون الخوف الذي يعصف بمن يمتلكون السلاح الأقوى، والجيش الأمضى..

خائفٌ أنا من السقوط، من الخوف بحد ذاته، بغدادي يجوب شوارع دمشق بخطوات قلقة، هارباً من المجهول..

وعندما يكون العدو مجهولاً، أو المجهول عدواً، عندها يقترب السقوط..

قبل أن تقع الكارثة، أحببت أن ألقي تحية عجلى على كل من يساند العراق.. بكلمة أو بدعاء، أو بثمن رغيف خبز.. إخواننا أنتم، فابقوا إلى جانبنا وأثبتوا لنا أنكم معنا بقلوبكم.. ".

طويت صفحة أخرى في حياتي، وطويت معها صورة زهرة الياسمين التي علقت في مخيلتي يوماً، ولعل خيالي انجرف كثيراً فتمنيتها لي زوجة وأماً لأولادي..

عدت إلى الشوارع من جديد في لقاء حافل معها، عدت أمشطها واحداً تلو الآخر بحثاً عن خيال وظيفة يلوح فأتشبث به ولا أفارقه حتى أعثر عليه..

كنت أسلك طرقاً جديدة علي، وأقابل أناساً لم ألمحهم في حياتي، ولم أحدث نفسي يوماً بلقائهم..

حادثت الطيب واللئيم، الصالح والطالح، البر

والفاجر، لم يشكل ذلك أدنى فرق عندي، كل ما أردته أن أعود بمبلغ من المال إلى البيت يكفي قوت الغد، وقد صحوت اليوم لأجد المائدة فارغة، وقد اختفى منها الحليب والزبد، والجبن والمربى، ولم يبق إلا الخبز، قد جعلت منه أمي فتاتاً، ووضعته في صحن، وسكبت عليه الشاي والسكر، وراحت تطعمه لصهيب، غذاءً رئيسياً..

وهو الذي لم ينقطع عنه الحليب يوماً منذ ولادته..

وقفتُ كجانٍ أو مجرم على عتبة أحدهم، في قضيّة الغلاء، وأنا ممثل شعبي هنا، وبسببي أو بسببهم ارتفعت أسعار الشقق وإيجارها، وكذلك كل أسعار السّلع..

كان يوجه اتهاماته مباشرة إلي، وأنا بقيت واقفاً كالحجر، لم أجد لنفسي دفاعاً أتفوه به، لأصدّ تلك الهجمات المسلّحة بألوان الجراح..

ثم إنه يقول الحقيقة، لكنه قد لا يعلم أننا ما غادرنا بلادنا عن طيب نفس، ولا هان علينا فراقها، إنما هي حركة فطرية للاحتفاظ بالروح في الجسد، وإن كنا لا نملك ذلك حتى هنا..

كما جلست ضيفاً عزيزاً على بعضهم، يرحبون بي أجمل ما يكون الترحيب، ويدعون لنا بالنصر، وعلى

المعتدي بالويل والثبور، ثم يعتذرون بلطف، فلا أملك إلا أن أعذرهم..

دمشق بدت واسعة جداً فوق تصوري، والتعب قد نال مني فعطل تفكيري..

وقفت عند أحد التقاطعات تائهاً أبحث عن قرار ينقذني من محنتي، قرار يسعفني وبسرعة من هذه الخيبة، وتذكرت وقتها الرجل صاحب العربة، صديق والدي، أو أياً يكن..

تذكرت حقيبة والدي وما بها من أشياء.. إرث أبي، أوَليست كذلك، إن بعت قطعتين منها في اليوم اطمأننت إلى أننا سنأكل وجبتين من الطعام، سنبقى إذن أحياء..

حددت وجهتي، وحسمت قراري، وصوت أبي يتردد، ليزيدني ثقة بما عزمت عليه..

- العمل ليس عيباً يا بني..

أجل.. لقد صدق أبي.. لم يكن العمل عيباً في يوم، وإنما نحن ظنناه كذلك، العيب في أن أتراخى لأترك أسرتي جياعاً يعانون الفقر والعوَز..

يائساً من كل شيء.. أسرعت إلى بيته، وطرقت بابه فلم يجبني أحد، وخمنت أنه سيكون في مكانه المعتاد يبيع ويشتري، فأسرعت إليه..

استقبلني بحفاوة، وأجلسني على مقعد خشبي صغير له وجه من القش، بائس يشبه وجه الحياة.. كلماته كانت حارّة جداً كلما تطرقنا إلى ذكر أبي، وكم سأل الله له الرحمة..

- والدك من أنبل الناس الذين عرفت، وأرجو أن تكون مثله..

قبل أن أسأله عن الحقيبة، وجدته يخرجها من العربة ويسلمها لي..

- هذه حقيبة والدك كما تركها، لم أفتحها من وقتها، إنها حقك، وقد انتظرتك طويلاً لكي تأتي وتأخذها إذ إنني لا أعرف أين مسكنكم..

فتحت الحقيبة فإذا هي كما هي، أنفاس والدي المعطرة قد احتبست فيها، ومزيج من عطر الكفاح والصمود والإيمان، كلها فاحت تلك اللحظة، لتشعرني براحة كبيرة.

شكرت الرجل وحملتها ومضيت، كمن يحمل شهادة تخرج، أو كنزاً ثميناً، وبحثت عن مكان ملائم لأجلس بها وأباشر عملي.. وفكرت فوراً في محطة الحافلات..

فكان أن وجدت جداراً يمكنني أن أستظل به، وأجلس تحته، فوضعتها، وبدأت أنادي بصوت غريب لم أتقبله ليكون صوت طارق الذي أعرفه، ويمثلني..

obeikandl.com

هناك ولدت لي شخصية جديدة لا أعرفها، الصوت مختلف، والملامح مستهجنة، المكان والزمان، العمل الذي بدأ يصبح جزءاً مني، كل ذلك حاصرني بوحشية، وبدأ يأكل قلبي من الداخل، ولم أجد حلاً حينها سوى التجاهل وغض النظر عن تلك الانهيارات التي تحدث داخلي..

ومازلت أفكر في لقمة العيش ما أشد ما تغيّر من الإنسان، وما أكثر ما تقلب في حياته من موازين.

في اليوم الأول كانت حصيلتي زجاجة عطر واحدة، اشتريت بثمنها حليباً وخبزاً..

وفي اليوم الثاني بعت زجاجتي عطر، فأشرقت أساريري، واشتريت بعض الجبن والحليب..

وفي اليوم الثالث كان البيع وفيراً، فبعت ساعتين وزجاجة عطر واحدة، وقمت بشراء خضار للطهي، وبعض الأرز والسكر..

في اليوم الرابع رحت أفكر في رأس المال، ماذا سيحدث لو بعت كل البضاعة ولم أحتفظ بمبلغ أشتري منه البضاعة، فكان علي أن أتصرف برويّة، وأن أحتفظ بقليل أدخره لأجني منه.. ووجدت ما أفعله كله

محض أكذوبة، حبة مسكنٍ حتى يتفجر الألم بفقر تام بعد حين..

كان علي أن أبيع أكثر، لأجني أكثر، وبدأت أنادي على العطور بكل طاقتي.

فوجئت بثلاثة من الشبان يتحلقون حولي، ويسألونني عن الأسعار بطريقة استفزازية، كان الشرر يتطاير من عيونهم، وكأنما يريدون بي شراً، فكرت في الانسحاب، لكن ذلك لم يكن ممكناً..

وكلما أجبتهم وأخبرتهم بالسعر قالوا لي دعنا نجرب..

فتحوا زجاجات العطور، ورشوها على أنفسهم واحدة تلو الأخرى، وهم يرددون:

- هذه رائحتها جيدة، وتلك رديئة..

وأمسكوا بالساعات يتفحصونها، فعرفت أنني أتعرض للسلب، ولم أستطع الاحتمال، فأغلقت الحقيبة ووضعتها جانباً، وأخبرتهم بأنني لا أريد البيع هذا اليوم، ولم أكمل عبارتي حتى انهالت اللكمات على وجهي ورأسي، كل يضرب بما أوتيه من قوة، وأنا في حالة يرثى لها، تتناولني أيديهم ضرباً، وأرجلهم ركلاً، حتى اجتمع الناس حولنا، وأبعدوهم عني..

كانت الدماء تسيل من أنفي ووجهي، وأراد بعضهم

أن يطلب لي عربة إسعاف فأخبرته أنني بخير، فقد فضلت الوجع على السجن..

حملت الحقيبة بما تبقى داخلها، ومشيت متحاملاً على نفسي نحو المنزل..

لحسن الحظ كانت أمي في غرفة النوم فلم تلحظ وجودي، وكان فؤاد غائباً يدرس عند زميل له في الحارة تعرف إليه منذ مدة، فصارا يدرسان معاً..

رآني صهيب ملطخاً بالزرقة والحمرة في وجهي، فتهلل وجهه وضحك لي، إذ ظن أنني ألعب معه، أو أنني قد أوحيت إليه بمظهري أنني مهرج أو شيء من هذا القبيل..

سريعاً إلى المطبخ، لأضع الثلج في طبق، وأحضر قليلاً من الأدوية التي تحتفظ بها أمي على الرف، وأختبئ في غرفتي..

نظرت إلى المرآة فلم أعرف نفسي، وكان علي أن أداوي جراحي سريعاً قبل أن تلتهب.. الألم كان لا يطاق، وكنت أكتم صرخاتي، ودموعي تجري من فرط الألم، كيلا تحس بذلك أمي..

وخطر لي أن أخرج سريعاً إلى أي مكان، أرتاح فيه ساعة من الوقت أو ساعتين، ثم أعود وقد تمالكت قوتي..

وأول من خطر ببالي اللجوء إليه هو الأستاذ سليم، فاعتمرت قبعة ذات مظلة طويلة، أسبلتها على وجهي، وأسرعت خارجاً من المنزل..

استقبلني غاضباً على غير عادته، وما أشد ما يجمّله العبوس، فيبدو كطفل غضوب، يشع وجهه براءة وصدقاً.. وقبل أن يسأل عن علتي أخبرته بأنها مشاجرة صغيرة لا ناقة لي فيها ولا جمل..

تظاهر بأنه قد اقتنع، وأجلسني قربه، وبود كبير سألني..:

- أين كنت كل هذه المدة؟ لقد افتقدتك..

- في الحياة يا أستاذي...

- وماذا جنيت؟

- الهم والتعب والفقد والألم..

- تتحدث كشيخ هرم، وأنت في ريعان شبابك..

- أوَلا تجدني هرماً.. شكلاً ومضموناً؟

- أرى الحياة صارعتك، فصرعَتك..

- هل من أمل في أن أصرعها أنا؟

- لو أردتَ لفعلتَ..

- كيف والفقر يسجنني، والبؤس يكبلني، والهم يلاحقني، والحزن يحيك قيوده حولي، فكيف لي أن أنجو، وأنى لي أن أهرب؟

- ماذا تعمل الآن؟

وهنا ضحكت وبكيت..

أمسك يدي بإصرار وقال:

- قل لي ماذا تعمل؟

- بائعاً جوالاً..

- أنت يا طارق؟

- العمل ليس عيباً، ولولا أن والدي رحمه الله قد دفع إيجار الشقة لعام مقدماً لكنا نبيت الآن في إحدى الحدائق العامة، أو تلاحقنا الشرطة لتزج بنا في سجون المشردين..

- وهذه العلائم على وجهك ثمرة عملك..

- إنها آثار تركها الظلم على وجهي، فلم أستطع صده..

- بؤساً لرجل لا يملك رد الظلم عن نفسه.. لقد ظننتك أقوى من كل هذا يا بني..

obeikandl.com

نداؤه لي بأبوة، حمل غيومي السود كلها على أن تتكاثف وتتصادم، فأمطرت بشدة قبل العبور، وبكيت طويلاً أمامه، كما لم أبك من قبل..

ناولني منديلاً، وراح يمسح بآخر بقايا الدماء التي لم تتخثر بعد من وجهي بكل رفق يعالجها، وسألني..:

- أتعمل عندي في المكتبة؟

مسحت دموعي وقلت له معتذراً..:

- لا يا سيدي الكريم، لا أريد أن أقوم بالعمل لأنك تود مساعدتي، أقدر هذا ولكن..

ابتسم وقال بلهجة غاضبة:

- ما بالك يا ولد؟ جامعي ولا تحسن القراءة؟ ألم تقرأ وأنت داخل إلى هنا " مطلوب شاب للعمل في المكتبة مساء "؟!

لقد تعبت من العمل في الفترتين الصباحية والمسائية، وأشارت علي زوجتي أن أبحث عن مساعد لي يحمل هذا العبء، ليتك توافق، فقد أحببتك مثل ولدي..

فيض حب وارتباك، وسعادة وامتنان، كل هذه المشاعر اجتمعت في لحظة واحدة..

- أحقاً؟.. قل إنك لا تمزح..

obeikandl.com

- وهل اعتدت ممازحتك؟ ستكون هنا من الرابعة عصراً في الغد، وفي الصباح ستفتش عن عمل تزاوله بدلاً من أن تهيم على وجهك في الشوارع، وتشتبك مع المجرمين..

- سأبحث عن عمل، لكن سأساعدك مجاناً وفاءً للدين..

- أي دين؟ أنا لم أعطك أي نقود، هيا انس الأمر ولا تكن عنيداً..

نظرت إليه وعيناي تطفحان بكثير من امتنان، وأجبته متسائلاً:

- حتى حين؟

ابتسم بدفء وقال موافقاً:

- حتى حين..

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر

كنت أعود كل يوم إلى البيت منهكاً، فأرى أمي جالسة وأمامها بعض القش تتسلى بصنع بعض السلال.. أخبرتني أنها تعلمت تلك الهواية من صديقة لها في بغداد كانت بارعة بهذه الأمور.. وكنت أحمد الله لأنها تشغل نفسها عن الحزن الذي بات عضواً مهماً في العائلة..

ولما عدتُ ذلك اليوم، فرأتني على ذلك الحال شهقت وألقت ما بيدها، وأسرعت تتفحصني، ورافقها فؤاد الذي كان متمدداً بكسل على الأريكة، فقد راقه المنظر كما بدا لي.. ليسرد لها بخبرته الشخصية تقريراً كاملاً عني..:

- هذه لكمة قوية، وهنا آثار أظفار.. وتلك ركلة.. ليتك ناديتني يا أخي لكنت قد لقنتهم درساً قاسياً..

أومأت له أن يصمت، فابتسم ببلاهة، وعاد ليتمدد في مكانه.. لأتولى الدفاع عن نفسي في قضية خاسرة..

لم تصغ أمي إلي وأنا أطمئنها أنني بخير، وقامت بوضع الضمادات على وجهي ويدي وساقي التي كانت قد تورمت وازرق لونها..

كانت صامتة، عابسة كقنبلة توشك على الانفجار، وكنت أيضاً صامتاً، متسمراً مكاني، أحاول أن أتجلد على الألم حتى يمضي بسلام..

أنهت مهمتها وجلست تحدق فيَّ، وأنا أبتسم..

سألتني بغضب:

- كيف لك أن تبتسم وأنت على هذه الحال؟

- لقد وجدت وظيفة محترمة أخيراً.. سأعمل في مكتبة الأستاذ سليم، ولن أعود للعمل في الشوارع..

- أتقول هذا كيلا أغضب؟ أعرف أنك قد تعرضت للضرب في حي مجاور، وقد ظننتك ستأتي لتخبرني بما حدث، لكنك باستهتار خرجت كيلا أراك.. وتركتني هنا تحرقني الهواجس السيئة..

أدركت وقتها أنني أخطأت، ولم أسألها من الذي أخبرها، فكل هذا أصبح في الماضي، ولا أريده أن يعود..

قبلت رأسها وسألتها الصفح، عاهدتها أن أبذل ما بوسعي لأجعل حياتنا أفضل، أخبرتها أنني سأعمل

في الليل والنهار حتى تستقر أمورنا.. وبقيت أعتذر حتى صفحت عني..

نادتني أمي في أحد المساءات وأخبرتني بأنها ستعمل..

ضحكت بمرارة وبدأت أشرح لها صعوبة العمل في دمشق، لكنها وبهدوء كبير أخبرتني أن بإمكانها ذلك..:

- أتستهين بأمك؟ أنت لا تعرفني.. أمتلك شهادة جامعية يا طارق، وأنت لم تمتلكها بعد، لدي خبرة في عملي، وأنت لم تزاول عملاً من قبل قط، وتخصصي قد يحتاجون إليه.. لقد تركت أخاك عند الجارة، ومررت على الشركات ووضعت سيرتي الذاتية كاملة، ورقم هاتف الجيران، قد يتطلب الأمر وقتاً لكن يجب أن أعمل..

- ولكن أخي.. أنتِ لم تفارقيه لحظة منذ ولادته، حالته الصحية، قد.. قد يتعرض لمكروه..

- لن يحصل له مكروه أكثر مما نعاني منه اليوم، نحن الآن في ضائقة شديدة، لكنها ستفرج، سنتكاتف، ولن نحمل الآلام منفردين، سنتقاسمها معاً، وستعود لجامعتك قريباً..

obeikandl.com

لم أستطع مجاراتها قط في تفاؤلها، فالجامعة بالنسبة إلي مجرد حلم بعيد.. لكن يبدو أن الأمهات لا يملكن إلا غرس الآمال في النفوس لعلها تزهر.

ولا أنكر.. لقد أمدني حديثها بكثير من راحة، فدب النشاط في أوصالي، وخرجت بروح جديدة أبحث عن عمل في الأمكنة البعيدة، وأقرأ الجرائد الإعلانية، وأسأل كل من أعرفهم، لعلي أفوز بعمل يرفع عن كاهلنا العناء.

لم أفهم حقيقة سر هذه السّلال التي تصنعها أمي بدافع التسلية، لقد أصبحنا نملك أكثر من عشرين سلة، قد جمعتها أمي بعناية، ووضعتها على طاولة صغيرة، وبدأت بصنع غيرها بجدية وانهماك تام، ليس الأمر كما ظننت محض تسلية، فهي تسهر طوال الليل من أجل أن تنجز واحدة منها..

فكرت في أنها تقتل بها الفراغ الكبير الذي تشعر به في غياب الجميع، أو أنه يشغلها عن التفكير في أمور تحزنها، ولطالما سألتها عن هذا السر، لكنها لم تخبرني حتى اكتمل ما كان يدور بذهنها..

obeikandl.com

نادتني في إحدى الليالي مع فؤاد فأتينا متثاقلين، وقالت لنا بجدية:

- أتعرفان كيف تُصنع السلال؟

فرك فؤاد عينيه بيده وتثاءب وقال بصوتٍ نائمٍ:

- أمي الوقت متأخر لتعليمنا صنع السلال..

ابتسمت أمي وتابعت تقول:

- لقد أنجزت أكثر من عشرين سلة، وهاهي شرائط الساتان الملونة للتزيين، وقماش الدانتيل ليغمرها من الداخل والخارج بشكل جميل، إضافة إلى الزهور القماشية..

إليكم.. هذا مشروعي الجديد..

طار النعاس من أعيننا فجأة ونحن ننظر إلى السلال العشرين التي أحضرتها أمي من غرفتها ترتدي حللاً رائعة كأثواب العرائس، وتضعها بالترتيب جنباً إلى جنب، لتتألق كل واحدة منها بلون مبهر، وأناقة رفيعة..

- ظننتكِ تصنعينها للتسلية يا أمي..

سألتها وعيناي معلقتان بإنجازها البديع..:

- هل ستبيعينها؟ وهل تعتقدين أن أحداً سيشتري هذه الأشياء رغم جمالها..

obeikandl.com

بثقة أجابت..:

- لم يعد لدينا وقت للتسلية يا ولدي، لقد فكرت في كل شيء، وحسبت كل شيء، هذه السلال اليدوية الصنع مرغوبة جداً هنا، وتباع بأسعار غالية نسبة إلى ما نظنه، فهي تضم ألواح الشيكولاتة والملبس اللذيذ عند استقبال المواليد، السماوية للصبي، والزهرية للبنت، وتعبأ السلة البيضاء بالياسمين، ليرش في الأعراس، ولها استخدامات كثيرة أيضاً..

لقد شاهدتها إحدى جاراتي فأعجبت بها كثيراً، وقالت إن أخاها لديه متجر متخصص ببيع لوازم الأفراح، وسيتعاون معي في بيعها، المهم أن أنجز أكثر..

صمتنا فؤاد وأنا، والإعجاب يلفنا..

- رائعة أنتِ يا أمي.. رائعة بحق!

الفصل الثالث عشر

الجلوس في غرفة جدرانها من كتب حلم لي قديم، قديم.. طالما تمنيت أن أعيشه حقيقة، وهاهي أمنيتي الصغيرة تتحقق بطريقة أخرى، قد لا تتطابق تماماً مع الحلم، لكنها تصب في حقيقته..

أنا اليوم فارسُ الكتب، في مكتبة ضخمة، عامرة بروائع المؤلفات التي حدثت نفسي كثيراً باقتنائها..

كان علي أن أعمل بجد، محاولاً أن أرد فضل الأستاذ سليم، هذا الرجل الطيب ولو قليلاً مما قدمه لي ولأسرتي..

قمت بحملة تنظيف شاملة على كل الأمكنة والرفوف، ألقيت فيها التحية على الكتب التي تصدرت الرفوف العليا، ومسحت على رأس الكتيبات الصغيرة، واعداً إياها بلقاء قريب.

لم أقاوم إغراء كتب التاريخ، فقد شعرت بها تناديني نداءً خفياً لأغوص في صفحاتها..

كنت خجلاً من نفسي، كدولة مريضة، سقطت إثر

حصار طويل، واستسلمت للمحتل بعد مقاومة عنيفة، وهي ملأى بالجروح الغائرة.. فهي حيّة لمجرد الحياة، لا نبض فيها ولا رونق..

في تلك اللحظة أردت أن أستعيد بعضاً من ذاتي التي فقدت، أردت أن أعامل نفسي بشيء من إنسانية، أن أربّت على روحي المتألمة، فأمنحها فسحة للتجوال عبر كتاب..

وقع اختياري على كتاب حديث في التاريخ، تناولته بلهفة، ورحت أفتش فيه عن تاريخ بغداد..

" هذه المدينة حوصرت وذبح سكانها أكثر من عشر مرات وفي بعض المرات اضطر المحتلون إلى الخروج من المدينة هرباً من رائحة الجثث بعد قتل مئات الألوف من سكان بغداد.

❖ بدأ " هولاكو " سلسة الذبح والقتل عام ١٢٥٨ ميلادية حين حاصر المدينة وضرب أسوارها بالمنجنيقات ثم ذبح جميع الذكور فيها واستباح المدينة التي سقط فيها مليون وثمان مئة قتيل لمدة أربعين يوماً، ولم يخرج هولاكو من بغداد إلا بعد أن " ثقل الهواء فيها بما حمل من كريه رائحة الجيف المنتفخة وأشلاء القتلى المطروحة في شوارع المدينة " كما ذكرت كتب التاريخ.

- بعد خمس وثلاثين سنة فقط عاد حفيد هولاكو " تيمورلنك " إلى بغداد فدخل المدينة وقتل عشرات الألوف من السكان وعذب الأحياء في شوارع المدينة لانتزاع الأموال منهم.

- بعد عام واحد من احتلال تيمورلنك لبغداد ضرب السلطان أحمد حصاراً حول المدينة ودخلها عنوة وارتكبت مجازر في شوارع بغداد راح ضحيتها هذه المرة جنود تيمورلنك.

- عاد تيمورلنك إلى بغداد فحاصرها أربعين يوماً وبعد قصف شبه يومي بالمنجنيقات والنار دخلت قوات تيمورلنك المدينة، وهذه المرة أمر تيمورلنك بإبادة سكان المدينة على بكرة أبيهم فأقيمت في بغداد عدة أبراج من رؤوس القتلى بعد هدم منازل المدينة وجوامعها وتدميرها، واضطر تيمورلنك إلى مغادرة بغداد بسبب رائحة الجيف وفساد الهواء من تفسخ جثث مئات الآلاف من القتلى.

- أعاد العراقيون بناء مدينتهم من جديد... ولكن بعد سبع عشرة سنة فقط سقطت بغداد للمرة الرابعة بعد أن حاصرتها جيوش " قره يوسف " التي قادها ابنه " محمد شاه " الذي أسس في بغداد دولة " الخروف الأسود التركمانية " وقام التركمان بقتل جميع سكان بغداد من العرب.

obeikandl.com

- اندلعت أزمة بين ولدي " قره يوسف " وهما محمد الذي احتل بغداد وحكمها ثلاثة وعشرين عاماً وأخوه " أسبان " الذي حاصر المدينة عدة أسابيع تمكن بعدها من دخول بغداد فذبح جميع القوات الموالية لأخيه ونفذ حكم الإعدام به.

- بعد أقل من تسع سنوات سقطت بغداد للمرة السادسة في تاريخها حين حاصرها السلطان " جهان شاه " مدة ستة أشهر كاملة أكل خلالها سكان بغداد القطط والكلاب والجيف، وقام السلطان بتدمير المدينة وتخريبها وتحريقها قبل أن يعين ابنه " بيربوداق " والياً عليها.

- بعد أشهر قليلة أعلن " بيربوداق " الانفصال عن أبيه السلطان " جهان شاه " حاكم تبريز فغضب الأب وهدد بالانتقام من ابنه فتوجه بجيش جرار إلى بغداد وحاصرها لمدة سنة كاملة أكل خلالها الناس بعضهم بعضاً من الجوع، لتسقط بغداد للمرة السابعة في تاريخها، وقام السلطان بقطع رؤوس جميع الذكور في المدينة وأعدم ابنه " بيربوداق " بعد تعذيبه وعين على المدينة الوالي "محمد الطواشي".

- بعد سنوات قليلة حوصرت بغداد للمرة الثامنة من قبل جيوش تتبع مقصود بن حسن الطويل الذي كان

يمثل قبائل تركمانية عرفت باسم " دولة الخروف الأبيض"... وقام كالعادة بذبح وقتل ما تيسر من سكان بغداد.

- ❖ السقوط التاسع لبغداد تم على يد إسماعيل الصفوي الذي ذبح جميع سكان بغداد من السنة وهدم قبور أئمة السنة وذبح علماء المسلمين، ولم يترك بغداد إلا بعد أن عيَّن خادمه خليفة عليها وأطلق عليه لقب " خليفة الخلفاء" للسخرية من المسلمين.

- ❖ أما السقوط العاشر لبغداد فتم على يد ذو الفقار بن علي وهو كردي. وقد تمكن هذا القائد بمعاونة اثنين من إخوته من تصفية النفوذ الصفوي الشيعي في بغداد، فقتل جميع الأسرى وبعث إلى العثمانيين يطلب منهم العون لتثبيت حكمه في بغداد خوفاً من عودة النفوذ الشيعي إلى المدينة الذي كانت تدعمه الدولة الإيرانية.

- ❖ غضب شاه إيران الشاه "طهماسب" من سقوط بغداد في يد الأكراد حلفاء خصومه العثمانيين، فتوجه الشاه على رأس جيش جرار إلى بغداد، ومع أنه حاصرها عدة أسابيع إلا أنه لم يتمكن من دخولها إلا بعد أن اتفق مع الأخ الأكبر للوالي الكردي ذو الفقار، إذ قام الأخ بفتح أبواب بغداد ليلاً للجيش

الإيراني الذي ارتكب مجازر في المدينة، ولم يغادرها إلا بعد تعيين الأخ الذي غدر بأخيه والياً على بغداد، وأطلق عليه لقب " سلطان علي ذو الفقار كش " أي " قاتل ذو الفقار "..... وكان هذا هو السقوط الحادي عشر لبغداد.

❖ في عام ١٥٣٤م حاصر السلطان العثماني سليمان بغداد، وتمكن بسهولة من اقتحامها وقتل بقايا الصفويين وفلولهم فيها، وأمر بإعادة بناء الأماكن الإسلامية السنية التي هدمها الشيعة، ومنها قبر أبي حنيفة وبنى على القبر قبة كبيرة لا تزال إلى اليوم مزاراً مهماً للمسلمين السنة.

❖ حوصرت بغداد بعد ذلك من قبل الإنكشاريين والإنجليز والعثمانيين والإيرانيين إلى أن سقطت بغداد بيد الهاشميين فحولوها إلى ماخور سياسي للغرب. وانتهت مرحلة الهاشميين بمجزرة قصر الرحاب، ثم تتابعت الانقلابات العسكرية الدموية التي انتهت بوصول صدام إلى الحكم... والآن دخل جورج بوش الابن تاريخ بغداد الدموي بصفته صاحب هجوم وحصار ربما كان العشرين لهذه المدينة المنكوبة التي لن تجد مدينة أخرى في العالم تعادلها في نكباتها ".

أنهيت القراءة، وتوقفت مع نقطة نهاية السطر، وأنا

أفكر في بغداد الحبيبة، كم صبرت، وصمدت، كم نالت من تعذيب وتغريب وتقتيل وسفك دماء، ولكنها أصرت على البقاء، وأصرّ العراقيون أن يحيوا فيها الأمل والحياة من جديد..

لم يتشاءم أحد منهم، ولم يتضجروا، كان لديهم إصرار فريد على إعادة بنائها، وكانت كل مرة تزدهر أكثر، وتتجمل أكثر..

قلت لنفسي..:

- أجل.. إنها النهضة، لما تسكن روح الإنسان، فيحيل الصحراء رياضاً خضراء، وهو الإيمان الكبير، المحرك لأن يتجدد فلا يكل أو يمل، بل يثابر، ويتابع..

أطلقت زفرة حب ولوعة لمدينتي الغالية.. وتجددت ثقتي بها، بنفسي، بالعراقيين كلهم..

أتاني صوت مألوف ليقطع حديثي مع بغداد، ومع نفسي..

- من فضلك.. أبي يخبرك أن تؤمن هذه الكتب سريعاً قبل الصباح..

التفت إليها، وإذا بها هي ذاتها.. زهرة الياسمين.. هديل المحققة الشهيرة في الكليّة..

بدهشة سألت..:

obeikandl.com

- أيعقل أنكِ أنتِ ابنة الأستاذ سليم؟!

لم تجبني، ولكنها برزانة قالت..:

- سمعت أن الدكاترة في الكلية يسألون عنك، فقد كنت في الشهور الماضية في المقدمة دائماً حضوراً ومشاركة وتميزاً.. كما زعموا..

نظرت إلى الكتاب ملياً وأنا أرى فيه صورة بغداد، احتضنته بين ذراعي، وصمتُّ للحظة، وسألتها أن تعطيني قائمة المراجع، لأؤمنها لها في دقائق، وقبل أن تمضي قلت لها:

- كانت نكسة.. أو سقوطاً، لكنها ستمضي..

غداً سأعود إلى الجامعة..

ومضت في صمت، ولم تنتظر جواباً، بعد أن رشقتني بجملة قوية عاتبة..:

- بلغ طارق البغدادي أن يعود أيضاً..

ويمضي الزمان.. وأجلسُ على الشرفة الضيقة مجدداً وحدي، فيما ينشغل الجميع عني ببناء أنفسهم المتعبة، ومستقبلهم الواعد..

أتأمل القمر يطلّ هادئاً سعيداً متألقاً وسط السماء، تحيط به هالات النجوم مضيئة بجمال أخاذ..

فيما تتوهج سماء بغداد في اللحظة ذاتها بالقذائف، وشهب النار، وينعكسُ ضوءها المحرق على صفحة دجلة، في كل لحظة يعبر فوقه، يوقع لنفسه وثيقة الفناء..

تنتابني الغصّة، كلّ لحظة؛ وأنا أفكر في أعداد الضحايا التي تزداد..

لا أقصد عدد الشهداء منذ بداية الحرب، والذين احتسبتهم إحصائيات الأمم المتحدة، ولا الذين اكتُشف وجودهم قتلى في مقابر جماعية مريعة..

ولا الذين ماتوا في العتمة، بأساليب شتى.. في السجون والسراديب وبقع الظلام..

لا أفكر في هؤلاء كثيراً.. فقد نالوا شرف الشهادة وارتاحوا من عناء الحياة تحت جنح الظلم..

ولكن يخنقني التفكير في المليون أرملة اللواتي يعشن الآن في غصّة الفقد، وفي كم الأطفال المشردين وغيرهم من المشوهين والمعوقين والأيتام، وكل من حرموا طعم الحياة في ظلّ وطن..

أفكرُ في الأمان المتلاشي في فوضى استعراض القوة، وجنون الأنانيّة، والتعصب للذات..

أفكرُ في حضارتنا المسلوبة، وثرواتنا المنهوبة، والقطع الأثرية القيّمة التي تتصدر أشهر متاحف العالم، تُعرض بوقاحة، ويتباهون أنها من بغداد!

وفي فئات من الشعب فقدت وعيها، أو توازنها، فسارت مع الموجة، واستساغت مرارة الانهيار..

تقتلني الحسرة على الوقت يمرّ سريعاً، ليهرم معه شبابها وهم جيل بناء..

أذرف وحيداً دمعة ساخنة، وتحترق في داخلي أشياء..

ترعبني فجأة أصوات انفجارات وأضواء قوية، فتنتابني رهبة الخوف على دمشق الأبية..

أنظر في المدى لحظة.. ثم أبتسم..

مدينة الياسمين الليلة سعيدة، ترتدي حلّة فرح تليقُ بها..

أمسح دمعتي وأفكر في أن أتجول وحيداً في رحابها..

وأمضي..أحملُ رغبة الاكتشاف.. سائح أنا الليلة في دمشق التي احتوت ألمي، وضمدت جرحي، وكفكفت دمعي بحب وقد توّجت عاصمة للثقافة الإسلامية لهذا العام..

أجوب رحاب الأموي، وأسراب الحمام فوقه لا تكف عن التحليق بسلام.. وحلقات العلم فيه لا تنقطع، تحملني لأبقى هناك أنصت لشيخ وقور، أتوحد بطلاب

العلم، وأمنّي نفسي أن أكون يوماً مثلهم، أشتاق إلى من يعلم الإسلام فيبرز وسطيته، وجماليته، وروعته.. ومن يجمعنا معاً تحت رايته ولوائه..

أمشي قليلاً، لأجد أمامي قبر صلاح الدين، هناك.. أتوقف طويلاً أذرفُ أدمعاً..

تحركني الأشواق إلى أيام خطها بالنصر والقوة..

حين تألق فارساً وحاكماً وحكيماً أيضاً، فوحد العرب بعبقريته، واعترف العدو بتفوقه وانتصاره..

أحادثه طويلاً في صمت عن العراق، مسقط رأسه، وعن الطريق الذي عبرته إلى هنا مهزوماً، وقد عبره هو يوماً منتصراً..

أتوق إلى زمان يشبه زمانه، حين كان للأبطال وجود.. وأفكر.. هل تراه قد اندثر؟! ألن يعود؟!

أوقفُ سيّارة أجرة، ويسألني السائق: إلى أين تريد؟! وأصمت..

أتمنى لو أنني أنطقها..

- إلى حبيبتي بغداد..

لكنني أفاجأ بقولي..:

- جولة صغيرة في دمشق، لو سمحت.. لا أملك نقوداً كثيرة..

يجيبني بحرارة أهل الشام..

- على عيني..

ويقرر هو خطة المسير..

- سنبدأ بباب شرقي، ونعرج على التكية السليمانية، ونصعد في النهاية إلى سفح قاسيون، ستكون جولة مختصرة وجميلة..

- على بركة الله..

يتحرك، وتتابع الطريق عيناي بشغف، أجوب تلك الأمكنة كطير يرفرف في جنّة، وعلى كتف قاسيون أطالبه بأن ينتظرني دقيقة، لأنعم بالوحدة.. ينشغل هو بكوب شايه الساخن، وأنشغلُ بسحر المكان..

واقفٌ أنا على شرفة الفجر بأمل، أراقب دمشق تتألق بأنوارها، ويخيل إليّ أنني أرى فيها وجه بغداد الحضارة تبسُم من جديد.. أتفاءل في حلمي أكثر، فأراها تتزين ويُحتفى بها عروساً للحضارة الإسلامية في المستقبل..

أجلس على صخرة شماء، وأداعب الحلم والقمر وأبتسم وقد وجدتُ ضالتي المنشودة.. داخل قلبي..

تلوح في خاطري كلمات العم سليم وأنا أحادثه عن تاريخ وطني، وعن الكتاب الذي قرأت، فيربت على كتفي بمحبة، وينطق كلمات لن أنساها ما حييت..

obeikandl.com

" سفراء تاريخ وحضارة أنتم يا أقمار بغداد، العزة تجري في دمائكم، والحضارة تضيء جباهكم وقلوبكم، فلا تذعنوا لصوت الحزن، ولا تستكينوا لسيوف سلطت على رقابكم.. ولا تظنوا أن بغداد ستستسلم لفكرة السقوط، إنها تتحامل على جراحها، تتأهب للنهوض، قد أضاءت المقاومة فيها صفحة العتمة، فمهدت سبيل النصر، وما زالت.. وأرسلت أبناءها رُسل بناء وعطاء إلى كل مكان..

وأنتم الآن مطالبون بصناعة حضارة جديدة، ونهضة مثلى، لتضيء الأمكنة والقلوب بحضوركم.. ونحن مطالبون بأن نساعدكم لنصنع معاً مجداً جديداً يجبرُ عين الأعمى أن تراه..

لا تقلق، ستتفتح العيون يوماً على الحقيقة.. ويرحلون..

فقط.. لو أننا أحبَّ بعضنا بعضاً أكثر..

فقط.. لو أننا نحبُّ أوطاننا أكثر..

فقط.. لو أننا نتعلم من هزائمنا..! ".

تمت بحمد الله

٢٠٠٨/١٢/١ م

نور الجندلي

nourjandali@hotmail.com

obeikandi.com

مستخلص

تتحدث الرواية عن معاناة العراقيين في ظلّ الحرب، وآثارها النفسيّة والمادية والمعنوية فيهم، عبر سردها لقصّة بطلها (طارق) مع أسرته النازحة إلى دمشق، هرباً من ويلات الحرب. بكل ما تحمله من هموم وأحزان ووجع، وبكل ما تحملهم إياه من رغبة في الحياة والتغيير..

وتلقي الضوء على كثير من المشكلات التي يتعرضون لها، وكيف استطاعوا التغلب على المحن التي تتالت عليهم واحدة تلو الأخرى، وكيف تجاوزوها بإصرار، وقد حملوا في قلوبهم حب بغداد، تلك المدينة الصامدة دائماً، والتي تعرضت لنكسات كثيرة، لم تزدها إلا قوّة وحضارة وصموداً.

obeikandl.com